

THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY



GENERAL
LIBRARY

SEP 15 1966

السُّنَنُ التَّالِغَةُ ذَرَاءُ لَا بَرِّ إِسْمَ بْنِ الْمَدْبَرِ

مصححة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فن الانشاء
ومذاهب الكتاب في القرن الثالث

بقلم

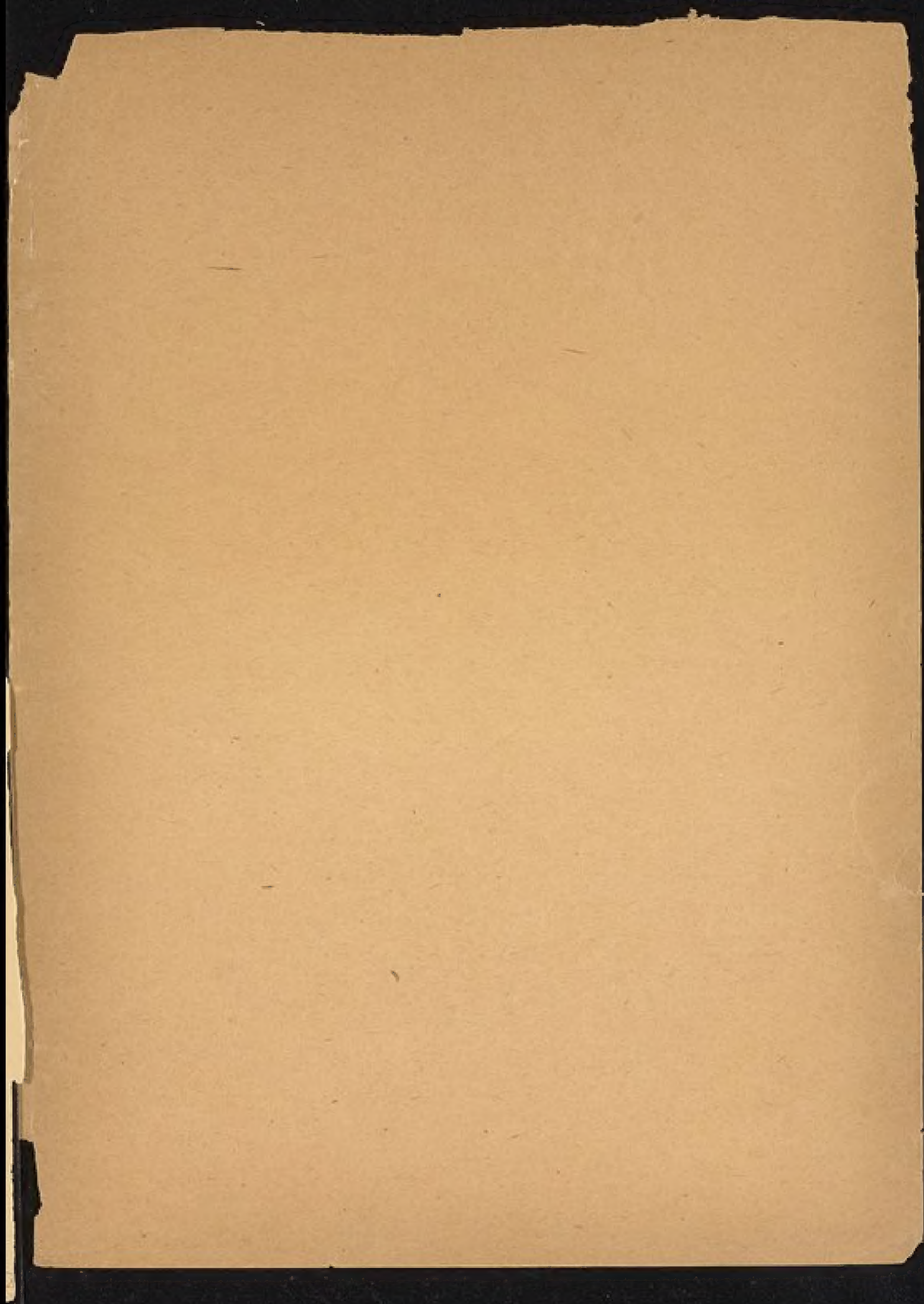
الدكتور زكي مبارك

رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية
وأستاذ بالليسيه فرانسيه بالقاهرة

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٩٣٥ - ١٩٣١ م



الى ابيكم اذعقري

من الجمل

زكي مبارك

السُّنَنُ التِّرَاغُمِيَّةُ ذَرَاءُ لَا بَرِّهِ سَيِّمُ بْنُ الْمَدْبَرِ

مصححة ومشروحة مع مقدمة مفصلة بالفرنسية عن فن الانشاء
ومذاهب الكتاب في القرن الثالث

بقلم

الدكتور زكي مبارك

رئيس قسم اللغة العربية بالجامعة الأمريكية
وأستاذ بالليسيه فرانسيه بالقاهرة

[الطبعة الثانية]

مطبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة

١٣٥٠ - ١٩٣١ م

~~893.741~~

~~I-6-54~~

PJ

6161

I26

1931

كلمة وجيزة

تلك الرسالة العذراء

أقدمها للقراء بعد أن شغلت نفسي بها عاما كاملا : فصحتها
وضبطتها، وقابلت أصولها على ما كتب من نوعها في فن الإنشاء .
وكان في النية أن أكتب لها مقدمة بالعربية، ولكنني اكتفيت
بذلك البحث المفصل الذي كتبته بالفرنسية عن فن الإنشاء
في القرن الثالث، وشرحت به آراء ابن المدبر، وابن درستويه،
والصولي، وابن عبد ربه، والملاحظ .

وهذه الدراسات قدمت في الأصل لمدرسة اللغات الشرقية
في باريس لنيل "دبلوم الدراسات العليا في الآداب" وقد عرضت
لها بشيء من التعديل بعد أن انتفعت بملاحظات الأساتذة
في يوم الامتحان .

وفي البحث الفرنسي بعض الخروج على الحدود التي رسمها
الأستاذ ولهم مرسيه . واني لأعتذر اليه : فقد رأيتني مضطرا
إلى مخالفته، وإن كنت أضمر له في نفسي أسى آيات الإعراز،

فقد يفنى كل شيء وتبقى ذكريات الساعات الطيبة التي قضيتها معه في تحقيق أصول "الرسالة العذراء" .

وهذا البحث في جملته تمهيد لكتابي الذي وضعته بالفرنسية عن "النثر الفني في القرن الرابع" وقدمته الى جامعة باريس .



وأتهز هذه الفرصة فأقدم أسمى التحيات الى المستشرقين الفرنسيين الأساتذة : مرسيه، وديمومين، وماسينيون، وكولان؛ الذين انتفعت بعلمهم في باريس .

وأشرف بعد ذلك باهداء هذا البحث الى الدكتور سنوك هوجرونيه المستشرق الهولندي الذي وضع في سنة ١٩٢٦ بحثا وافيا بالهولندية عن كتابي "الأخلاق عند الغزالي" فشرفتني كل التشريف ورفع قدرى بين المستشرقين ما
زكى مبارك

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فتق الله بالحكمة ذهنك، وشرح بها صدرك، وأنطق بالحق لسانك، وشرف به بيانك. ^(١) وصل الى كتابك العجيب الذي استفهمتي فيه بجوامع كلمك جوامع أسباب البلاغة، واستكشفتني ^(٢) عن غوامض آداب أدوات الكتابة، سألني أن أفك بك على وزن عذوبة اللفظ وحلاوته، وحدود نخامة المعنى وجزائمه، ورشاقة نظم الكتاب ومشكلة سرده، وحسن افتتاحه وختمه، وآتياه فصوله، واعتدال وصوله، وسلامتهما من الزلل، وبعدهما من الخطل، ومتى يكون الكتاب مستحقا اسم الكتابة، والبلغ مسلماته معاني البلاغة في إشارته واستعارته ^(٣)، وإلى أي أدواته هو أحوج، وبأي آياته هو أعمل، إذا حصص الحق ^(٤)، ودُعي إلى السبق ^(٥)، وفهمته.

(١) الابتداء بالله تعالى على هذا النحو كان مألوفاً في القرن الثالث، ويشبه هذا ابتداء الجاحظ حيث قال: "بنتك الله الشبهة، وعصمك من الخيرة، وجعل بينك وبين المعرفة نصيباً، وبين الصدق مبياً، وحبيب إليك التثبت، وزين في عينك الإنصاف، وأذاقك حلالة التقوى، وأشرف قلبك عز الحق، وأودع صدرك برد البقين، وطرد عنك ذل اليأس، وعرفك ما في الباطل من الدلالة، وما في الجهل من الدلالة".
مقدمة الحيوان طبع سنة ١٣٢٣ بالقاهرة. (٢) نلاحظ أن الكاتب عدّى الفعل: «استفهم» بنفسه، وعدّى: «استكشف» بالحرف، وقد نص الفيروز آبادي على تعدية الفعل الثاني وصكت عن الأول. (٣) لعل الصواب «وعبارته» لأنها أنسب ولأن المؤلف لم يفرد الاستعارة بكلام خاص. (٤) جملة: «إذا حصص الحق» لا حاجة إليها ولكن دعا إليها السجع والمغنى في المزاجية. (٥) جملة: «وفهمته» وقعت بعيدة عن الكتاب، وإيجازها بعد ذلك الامتناب بشعر القارئ بشئ من الوضحة. وقد وقع هذا التعبير بعبارة في مقدمة رسالة الجاحظ عن أخلاق الكتاب إذ قال: «قد قرأت كتابك، ومدحك أخلاق الكتاب وفعاظم، ووصفك فضائلهم وأهمهم، وفهمته» ص ٤٠ من «ثلاث رسائل للجاحظ» طبع القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ. وكلمة الجاحظ «مدحك أخلاق الكتاب» وردت هناك «مدحك» والأصوب ما أثبتناه ليصح التوازن مع قوله بعد ذلك: «وصفك فضائلهم».

وأنا راسم لك - أيدك الله - من ذلك ما يجمع أكثر شرائطك، ويعبر عن جملة
سؤالك، وإن طوّلت في الكتاب وعرضت^(١)، وأطنبت في الوصف وأسهب،
ومستقص على نفسى في الجواب على قدر استقصائك في السؤال، وإن أخل به
التيات الحال، وسكون الحركة، وفور النشاط، وانتشار الروية، وتقسيم الفكر،
واشتراك القلب، والله المستعان^(٢).

(١)

اعلم - أيدك الله - أن أدوات ديوان جميع المحاسن وآلات المكارم طاعة متقادة^(٣)
لهذه الصناعة التي خطبتها وتالية تابعة لها وغير خارجة إلى جملة أحكامها ولا دافعة
لها يلزمها الإقرار به لها لإضرارها منها إليها وعجزا عنها، فإن تقاضت نفسك علمها
ونازعتك همتك إلى طلبها فاتخذ البرهان دليلا شاهدا والحق إماما فائدا يقرب مسافة
ارتبادك ويسهل عليك سبل مطالبها، وأستوهب الله توفيقا تستجيب به مطالبك،
وأستمحه رشدا يقبل إليك بوجه مذاهيك . فاقصد في ارتبادك، وتأمل الصواب
في قولك وفعلك . ولا تسكن إلى محمود قصد السابق بالهجاج، ولا تخرج إلى إهمال
حق المصيب بالمعاندة والانتكار، ولا تستخف بالحكمة ولا تصغرها حيث وجدتها،
فترحل نافرة عن مواطنها من قلبك، وتظعن شاردة عن مكانها من بالك، وتنعنى
بعد العبارة من قلبك آثارها، وتتطمس بعد الوضوح أعلامها .

(١) عرضت : جعلته عرضا وهو تعبير قليل الوقوع . وفي مثله قال موسى بن الطائفي الأندلسي :
يا مبصر اعيت نواظر فهمه . عن كنه عرضي في البديع وطول

ص ١٤٢ ج ١ ذخيرة

(٢) هذه العبارة تفهمنا أن المؤلف وضع هذه الرسالة في وقت لم يكن أنسب الأوقات للتأليف . ولكن
يبنى أن نلاحظ أن مثل هذه الشكوى وقعت لكثير من المؤلفين حتى كادت تصبح فاعدا بعد بنائها من المقدمات .

(٣) « طائفة » مؤنث طاع بمعنى طائع .

(٢)

وأعلم أن الاكتساب بالتعلم والتكلف ، وطول الاختلاف إلى العلماء ، ومدارسة كتب الحكماء ؛ فإن أردت خوض بحار البلاغة ، وطلبت أدوات الفصاحة ، فتصفح من رسائل المتقدمين ما تعتمد عليه ، ومن رسائل المتأخرين ما ترجع إليه : في تلقيح ذهنك ، واستتجاح بلاغتك ، ومن نواذر كلام الناس ما تستعين به ، ومن الأشعار والأخبار ، والسير والأسمار ، ما يتسع به منطقك ، ويعذب به لسانك ، ويطول به قلبك .

(٣)

وأنظر في كتب المقامات والخطب ، ومحاورات العرب ، ومعاني العجم ، وحدود المنطق ، وأمثال الفرس ورسائلهم ، وعهودهم وتوقيعاتهم ، وسيرهم ومكائدهم في حروبهم ، بعد أن تتوسط في علم النحو والتصريف والمغة والونائق والشروط ككتب السجلات والأمانات ، فإنه أول ما يحتاج إليه الكاتب ، وتتمهر في نزع آي القرآن في مواضعها ، واجتلاب الأمثال في أمالكها ، واختراع الألفاظ الجزلة ، وقرض الشعر الجيد ، وعلم العروض : فإن تضمين المثل السائر ، والبيت الغابر ، مما يزين كتابتك ، ما لم تحاطب خليقة أو ملكا جليل القدر ، فإن اجتلاب الشعر في كتب الخطباء والجللة الرؤساء عيب واستهجان للكاتب ، إلا أن يكون

(١) في الأصل « الأسماء » وهو تعريف - (٢) المقامات جمع مقامة وهي في اللغة المجالس . وفي القرآن : « أي الذين خير مقاما وأحسن نديا » سورة مريم آية ٧٢ وفي شعر زهير :
وفهم مقامات حسبان وجودهم * وأندية ينأبها القول والفعل

ثم نظرت بالاستعمال فصارت تدل على ما يقع في الأندية من طريق المحاورات ، وفي هذا المعنى استعمالها مؤلف الرسالة المذكورة ، ثم تخصصت في كلام بدیع الزمان ومن حاكاه فصارت اسما للغة القهية السجوة . (٣) في العفصد : « التريب » وهي اللفظة المستعملة في مثل هذا المقام .

الكاتب هو الفارض للشعر والصانع له ، فإن ذلك مما يزيد في أهنئه ، ويدل على براعته ، وإن شذوت من هذه العلوم ما لا يشغلك محله ، وتنقبت من هذه الفنون ما تستعين به على إطالة قلمك ، وتقوم أود بيائك .^(١)

بعد أن يكون الكاتب صحيح الفريضة ، حلو الشئائل ، عذب الألفاظ ، دقيق الفهم ، حسن القامة ، بعيدا من القدامة ، خفيف الروح ، حاذق الحس ، محنكا بالتجربة ، عالما بجلال الكتاب والسنة وحرامهما ، وبالملوك وسيرها وأيامها ، وبالدهور في تلبسها وتداولها ، مع براعة الأدب ، وتأليف الأوصاف ، ومشاكل الاستعارة ، وحسن الإشارة ، وشرح المعنى بمثله من القول ، حتى ينصب صورا منطقية تعرب عن أنفسهم ، وتدل على أعيانها ، لأن الحكماء قد شرطوا في صفات الكتاب طول القامة ، وصغر القامة ، وخفة اللاهزم ، وكثافة اللحمية ، وصدق الحس ، ولطف المذهب ، وحلاوة الشئائل ، وملاحة الزى ، حتى قال بعض المهابة لولده :

(١) يناسبه فاضل الأبيات قال صاحب مسح الأعشى : « الاستنباط أن يوجد بيت من الشعر المراد بهن أو أكثر في جلال الكلام المنثور مطاوعا لمعنى ما تقدم من الخبر ، ولا يشترط فيه أن ينفذ عليه بقاؤه ونحوه كما يشترط في الاستنباط آيات القرآن والأحاديث النبوية » فإن الشعر في بوزنه ومبنيته من غيره من أنواع الكلام فلا يحتاج إلى التنبية عليه . وأكثروا ما يكون ذلك في المكتبات الإعرابات »
ص ٢٧٤ ج ١ طبع دار الكتب المصرية .

(٢) لم يذكر الكاتب جواب الشرط .

(٣) في الكلام الثبات من الخطاب إلى الغائب .

(٤) في الأصل "نصب" بانه مقتضى من فوق .

(٥) الربط غير موجود بين هذا الكلام وما قبله ، لأن ما قبله خاص بإعادة الشئائل وهذا خاص بالصفات الحسية للكاتب . وعجاجة القمد : « من صفة الكاتب اعتدال القامة ... الخ » ولما حظ أن هناك « اعتدال القامة » وهذا « طول القامة » . (٦) جمع خزيمة وهي عظم رثا تحت الأذن .

تزيوا بزى الكتاب ، فإن فيهم أدب الملوك ونواضع السوقة ^(١) . [ومن كمال آلة
الكتاب أن يكون بهى الملبس ، نظيف المجلس ، ظاهر المروءة ، عطر الرائحة ،
دقيق الذهن ، صادق الحس ، حسن البيان ، رقيق حواشي اللسان ، حلوا الإشارة ،
مليح الاستعارة ، لطيف المسالك ، مستغنى المركب ، ولا يكون مع ذلك فضفاض
الجنحة ، متفاوت الأجزاء ، طويل المحبة ، عظيم الهامة ، فأنهم زعموا أن هذه الصورة
لا يليق بصاحبها الذكاء والفضيلة ^(٢)] .

(١) كان الكتاب يجمعون في لابهم حتى سميت فيهم هذه العبارة . وكان ثم زى خاص ، قال تعالى :
« وكان في حلة الطائر على صاحب شبح أنطاكي في زى الكتاب حسن البيان طريف النهاية » ص ٥٣
ج ٣ بقية . وكانوا يعرفون بعبارة الشرائع ، وألفه صاحب صبح الأعشى (ص ١١٥ ج ١٤) :
وشول كاتبها اختصروها * من معاني شمائل الكتاب

... وقال ابن بناء يوسف عبد الرحمن بن حزم وبنظيره على ابن عمه أبي محمد ابن حزم (كان أبه من أبي محمد
في حضور شعله وذكره خاطره وحين هذه وراثة ظهره وجودة أدبه) أنظر المخطوطة ج ١ ص ٦٣
مخطوط بدار الكتب المصرية .

وقد أشار ابن قتيبة إلى أن زيادة الكتاب في عيون الأعيان ج ١ ص ٤٦ وعرض لم الجاحظ في رسالته
ذم المخلوق الكتاب فأنهم كانوا يهتمون بتعرض الجاهل والمطلوب إلى القابل . أنظر ص ٤٢ من ثلاث
رسائل الجاحظ طبع القاهرة سنة ١٣٤٤ هـ .

وقد أضافنا يا قوت بعض التفاصيل عن لابهم فذكر أنهم كانوا يلبسون الفيلسوف أو الذراعة . وأنظر
قوله (قال ابن عبد الرحيم : كان القتي في يده أمره يلبس الفيلسوف ... ثم لبس من يسهل الذراعة وسلك
في لبسه مذاهب الكتاب القدماء ، وكان يلبس الخفين والمخيطنة ، ويتعمم العمة القشرية ، وإن لبس لآلة
لم تكن إلا امر بديه ، وكان لا يتعرض لحق شعره برأعي السنة السالفة .) ص ٢٢٤ ج ١ — وعرض
المقدمي أيضا لأزياء الكتاب في كتابه أحسن التقاسيم ص ٤٤٠ ج ١ — و يظهر من كلام الجاحظ
في البيان والبيان أنه كان لكل طبقة من الكتاب زى خاص . أنظر ص ٦٠ ج ٣ . والتفاصيل التي أضفناها
صاحب المقادير عن أصناف الكتاب تحتم ذلك : فقد كان لكل صنف ثقافة خاصة به فن المفضل أن يكون
لكل طبقة زى خاص بها ليس كل الوسط الذي تعيش فيه .

(٢) زيادة عن نهاية الأرب ج ٧ ص ١٢

(٥)

وخاطب كلا على قدر أهله وجلالته، وعلوه وأرتفاعه، وتغطته وأنبأه ^(١٢) .
 وأجعل طبقات الكلام على ثمانية أقسام : فأربعة منها للطبقة العلوية ، وأربعة ^(١٣)
 دونها ، ولكل طبقة منها درجة ، ولكل فسمة حظ لا يتسع للكاتب البليغ أن يقصر ^(١٤)
 بأهلها عنها ، ويقاب معها إلى غيرها : فالطبقة العليا الخلافة التي أعلى الله شأنها ^(١٥)
 عن مساواتها بأحد من أبناء الدنيا في التعظيم والثوقير والمخاطبة والقرى .
 والطبقة الثانية الوزراء والكاتب الذين يخاطبون الخلفاء بعقولهم وألسنتهم ، ويرتقون
 الفنون بأرائهم ، ويعملون بأديهم . الثالثة أمراء تغورهم ، وقواد جيوشهم ،
 يخاطب كل أمرئ منهم على قدره وبما حل من أعباء أمورهم ، وجلال أعمالهم .
 الطبقة الرابعة القضاة ، فانهم وإن كان لهم تواضع العلماء وحلية الفضلاء ، فمعهم
 أبهة السلطنة وهيبة الأمراء ^(١٦) .

(١) عبارة العقد الجديد : « إذا استجبت إلى مخاطبة الملوك والوزراء والعلماء والكاتب والمخاطبة
 والأدباء والشعراء وأوساط الناس وسوقهم فخطب كلا على قدر أهله » . الخ .

(٢) في العقد : « وغطته » .

(٣) عبارة العقد : « منها الطبقات العلية الأربع ، والطبقات الأخرى ومن دونها أربع » .

(٤) عبارة العقد : « فالأول الطبقات العليا رعايتها القصوى الخلافة » .

(٥) عبارة العقد : « التي أجل الله قدرها » .

(٦) بمناسبة المكتوب إليه قال ابن قتيبة في أدب الكاتب : « ومن سب له أياً أن يزل الخافعة
 في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه ولا يعلو عليه من رتبة الكلام ولا يرفع الناس
 وضع الكلام ، فإن رأيت الكتاب قد تركوا عقد هذا من أنفسهم وخلطوا فيه فليس يفرقون بين من يكتب
 إليه : « مرأيتك في كذا » وبين من يكتب إليه : « فإن رأيت كذا » . ورأيت أيضاً يكتب إلى الأئمة
 والمساوين ولا يجوز أن يكتب بها إلى الرقياء والأساكدة لأن فيها معنى الأمر وله لك نصيب » .

ولا يفرقون بين من يكتب إليه : « وأنا فعلت ذلك » وبين من يكتب إليه : « ونحن فعلنا ذلك » .
 نحن لا يكتب بها عن نفسه إلا أمر أراء لأنها من كلام الملوك والعلماء » . من ١٥ طبع سنة ١٣٤٩ هـ .

أما الطبقات الأربع الأثري : فالملوك الذين أوجبت نعمهم تعظيمهم في الكتب
وأفضالهم تفضيلهم فيها . والثانية وزراءهم ، وكتائبهم ، وأتباعهم الذين بهم نفوذ
أروابهم ، وبعائيتهم تستباح أموالهم . والثالثة هم العلماء الذين يجب توقيهم
في الكتب لشرف العلم وعلو درجة أهله . والرابعة لاهل القدر والحلاوة والظرف ،
والخلاوة والعلم والأدب ، فانهم يضطرونك بحدة أذهانهم ، وشدة تمييزهم وانتقادهم ،
[وأدبهم وتصفحهم]^(١٣) الى الاستقصاء على نفسك في مكانتهم .

(٦)

واستغنيا عن الترتيب للتجار والسوقة والعوام رتبة لاستغنائهم بتجارتهم عن هذه
الآلات ، واشتغالهم بمهماتهم عن هذه الأدوات . ولكل طبقة من هذه الطبقات
معان ومذاهب يجب عليك أن تراعيها في مراسلتك إليهم في كتبك ، وترن كلامك^(١٤)
في مخاطبتهم بميزانه ، وتعطيه قسمة ، وتوفيه نصيبه ، فانك متى أضعت ذلك لم آمن بك^(١٥)
أن تعدل بهم غير طريقهم ، [وتسلط بهم غير مسلكهم]^(١٦) وتجري شعاع بلاغتك^(١٧)
في غير مجراه ، وتظم جواهر كلامك في غير سلكه . فلا تعتد بالمعنى الجزل ما لم تليسه^(١٨)
لفظا بجزلا لا تقا من كتابته ، ومشابها لمن راسلته . فان إلباسك المعنى ، وإن شرف^(١٩)
وصلح ، لفظا مختلفا عن قدر المكتوب اليه لم يجز به عادتهم تهجين المعنى ، وإخلال^(٢٠)

(١) في العقد : « أهل القدر » . (٢) عبارة العقد : « والحلاوة والظرف والخلاوة »
والظرف والأدب . (٣) زيادة عن العقد . (٤) في العقد : « تراعاها في مراسلتك
إياهم في كتبك » . (٥) في العقد : « متى أهلك ذلك » . (٦) في العقد :
« لم آمن عليك » . (٧) في العقد : « من » . (٨) زيادة عن العقد . (٩) في الأصل :
« فلا يقيد المعنى » وقد أثرنا عبارة العقد لأنهم أدق . (١٠) في الأصل : « وإن إلباسك » وقد
أحضرنا رواية العقد ، لأنها أظهر في ربط الكلام .

بقدره ، وظلم لحق المكتوب اليه ، ونقص مما يجب له ، كما أن في اتباع تعارفهم ،^(١)
وما انتشرت به عاداتهم ، وجرى به سنتهم ، قطعاً لعدوهم ، وخروجاً من حقوقهم ،^(٢)
وبلوغاً الى غير غاية مرادهم ، وإسقاطاً حجة أدبهم .

فمن الألفاظ المرغوب عنها ، والصدور المستوحش منها في كتب السادات^(٣)
والأمراء والملوك ، على اتفاق المعاني ، مثل : " أبغاك الله طويلاً وعمرتك ملياً " ،
وإن كنا نعلم أنه لا فرقان بين قولهم : " أطال الله بقاءك " ، وبين قولهم : " أبغاك
الله طويلاً " ، ولكنهم جعلوا هذا أرفع وزناً ، وأنه قدراء في مخاطبة الملوك ، كما أنهم
جعلوا " أكرمك الله وأبغاك " أحسن منزلة في كتب الظرفاء والأدباء ، من " جعلت
فداك " ، على اشتراك معناه ، واحتال أنه يكون فداء من الشريك كما يكون فداء له من
الشر . ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لسعد بن أبي وقاص : " فداك
أبي وأمي " ، لكرهت أن يكتب بها أحد . على أن كتاب العسكر وعواقبهم قد أولعوا^(٤)
بهذه اللفظة حتى استعملوها في جميع محاوراتهم ، وجعلوها حجة في مخاطبة
الشرىف والوضيع ، والصغير والكبير ، ولذلك قال عمود الزواق :

(١) في الأصل « امتاع » وهو تحريف .

(٢) في الأصل : « رضا قدرهم » والتصويب عز القند .

(٣) كلمة « غير » لا لزوم لها هنا ، وهو من زيادة « مع » .

(٤) في الأصل « ضمن » وهو تحريف .

(٥) قال الأصول : « فذكره قوم من أهل العلم » أمثال الله بقاءك . . وروى عن حماد بن زيد أنه
قال : أحدثها الزنادقة . وقال الأنصاري : هي من دعاء الزنادقة . وقيل : أصل يطل هذا ويطلق الكتاب
بها إذ كان الناس كلهم الآن عليها . وذلك الأصل هو ما رواه أنها وقعت في مخاطبة عمر لعلي بن أبي طالب :
صليت ، أطال الله بقاءك ! (أدب الكتاب — ص ١٧٢ و ١٧٣) .

(٦) في القند : « ارم ، فداك أبي وأمي ! » .

كل من حل من راي من النا * من ومن يصاحب الاملاكا^(١)
لو راي الكلب مائلا في طريق * قال للكلب يا جعلت فداكا^(٢)

(١) في نسخة : « يا داخل » . (٢) قد وقع ابن المديري في هذا إذا قال يا جعلت فداكا :
كيف أصبحت يا جعلت فداكا * لأنني أشك في ذلك جفاكا
(ص ١١٨ ج ١٩ أنال) .

وقوله في مخاطبة أبي عبد الله حمزوني :

لباس مستصفا في مثل ذلك يا * نغمي فداك من مستصحب شر

و تأمل عبارة « يا نغمي فداك » . ورويت هذه العبارة في خطاب كتبه إليه قريب إذا ذات : « فلا
تعود نفسك — جعلني الله فداها — هذا الخفاء » وانقضى في الاحتمال وسرعة الجوع » ص ١٢١
ج ١٩ أنال . وذكر الظفندي فلا عن النعمان في جملة ما يكتب به القديان : « جعلت أنا وطارق
واللهي فداك » أو نغمي فداك » ص ١٢٢ ج ٨

وقد وقع هذا الدعاء في كتب ابن عبد كائن — كاتب أحمد بن طولون في مصر — إذا قال :

« جعلني الله فداك : فإن في ذلك شرفا في العاجل ، وضرر العني في الآجل » . وقال :

« إن قلت في كتبي إليك : جعلني الله فداك ، فأكون قد نجست حلق إسمائك إلى ، وحتى مقترضك
على ، لأنها نفس لا توازن ساحة من يومك ، ولا توازي طرفة من دهرك ، وإسا يندى منك بالأنفاس
التي هي أنفاس من الدنيا وأعرض من أطوار الأرض » ص ١٦١ ج ٨

ويظهر من كتاب أدب الكتاب الصولي أن هذا نغمي لديم ، فقد نقل أن الوزير دخل على النبي صلى الله
عليه وسلم وهو غليظ فقال : ما الذي بك ، جعلني الله فداك ؟ فقال : « يا زبير ! أما تركت أمرا بينك
وبه ! » . كأنه كره قوله : جعلني الله فداك . ص ١٧٣ . ونقل عن أحمد بن يحيى تعليق أنه سمع ابن الأعرابي
يقول : تقول : تقول العرب « وهبي الله فداك » يعني جعلني فداك . ص ١٧٤

وكاتب عبد الحميد : « جعلت فداك من السوء كله » . وثبتته أمير العبداء ص ١٥٦ أدب الكتاب .

ويظهر أن ابن المديري كان قد رد هذه الفكرة في أحاديثه قبل أن يودعها الرسالة العذراء ، فقد قال
الصولي : وأجتهنوا أن يقولوا للوزير في الدعاء « جعلني الله فداك » من أجل أن النبي : إنما يندى
بمنه أو بأجل منه . ثم قال إنه أراد الشواهد على ذلك : « حقا بذلك إبراهيم بن العبداء ، وهذا رأي
لم يكن القدماء يرونه ، بل كانوا يخاطبون الخلفاء بالندبة فضلا عن الوزير » . (ص ١٥٣ و ١٥٤) .
ونقل عن الفريد أنه قال : سأل المؤمنون أبا محمد يحيى بن الحياوة عن شيء . فقال له : « لا ، وجعلني الله
فداك ، يا أمير المؤمنين » . فقال : « قد ذلك » ما وضعت وارقط موضعاً أحسن من موضعها في لفظك .
ووصله وجملة . قال : وهذا لفظ أدب المؤمن ، علم أن الندبة من أخلص الدعاء ، وألطف التوسل ،
وأن غاية موجود الإنسان وأنفس ذخائره نفسه جات أو قلت (ص ١٥٤) .

وكذلك لم يميزوا أن يكتبوا بثل "أبفاك الله وأمنع بك" إلا إلى الحرمه والأهل
والتابع والمنقطع اليك . وأما في كتب الإخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه ؛
ولذلك كتب عبد الله بن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات^(١) :

أحلت عما عهدت من أدبك * أم قلت ملكا فتبت في صحتك^(٢)
أم هل ترى أن في التواضع لل * بإخوان نقضا عليك في حسبك^(٣)
أتعت كذبك في مكاتبتى * حسبك مما يزيد في تعبك^(٤)
إن جفاء كتاب ذي أدب * يكتب في صدره : "وأمنع بك"^(٥)
فكتب إليه محمد بن عبد الملك :

أنصرت شيئا فليست فاعله * فلن تسراه يخط في كتيك^(٦)
فأعف فذلك النفوس عن رجل * يعيش حتى المات في أدبك^(٧)
كيف أخون الإخاء يا أملى * وكل نبي أنال من سيبك^(٨)
إن بك جهلا أنالك من قبلى * فقد بفضل علي في أدبك^(٩)

(١) وردت هذه المكاتبات في أدب الكتاب مع اختلاف قليل (أنظر ص ١٦١ و ١٦٢) .

(٢) رواية القند :

أم هل ترى أن في ملاعبة الإخاء * يواست نقضا عليك في أدبك

(٣) في القند : « حسبك مما لفت » .

(٤) رواية القند :

أكان حقا كتاب ذي مقه * يكون في صدره : وأمنع بك

(٥) في القند : « وان » وهو أدق .

(٦) رواية الصول : « في كتفك » وهي أنصب ولا يقع بها في البيت إعطاء .

(٧) رواية الصول : « كيف يحول الإخاء ... وكل خير » الخ .

(٨) رواية الصول :

إن كان ذبا جاء ذرقة * فقد بفضل عليه من أدبك

ورواية ابن عدي :

إن بك جهلا أنالك من قبلى * فقد بفضل علي من حسبك

(٧)

وأما صدور السلف فإنما كانت : من فلان بن فلان إلى فلان . كذلك خرجت كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى العلاء بن الحضرمي ، وإلى أقبال ابنين ، وإلى كسرى وقبصر . وكتب أصحابه والتابعين كذلك ، حتى استخلص الكتاب هذه المحدثات من بدائع الصدور ، واستنبطوا لطيف الكلام ، ورتبوا الكل رتبة . وخرجوا على تلك السنة الماضية إلى عصرنا هذا في كتب الخلفاء والأمراء وثبتوا على ذلك المنهج في كتب الفتوحات والأمانات والسجلات .

(٨)

ولكل مكتوب إليه قدر ووزن ينبغي للكاتب ألا يتجاوز به عنه ، ولا يقصر به دونه . وقد رأيتهم عابوا الأخص حين خاطب الملوك بخاطبة العوام في قوله : وأراك تفعل ما تقول وبعضهم : مَذَقُ الحديث يقول ما لا يفعل فهذا معنى صحيح في المدح ، ولكنهم أجعلوا أقدار الملوك أن يمدحوا بما يمدح به العوام ، لأن صدق الحديث وإنجاز الوعد ، وإن كان مدحا فهو واجب على كل ، والملوك لا يمدحون بالفروض الواجبة ، وإنما يحسن مدحهم بالنوافل ، لأن المادح لو قال لبعض الملوك : إنك لا تزي بحيلة جارك ، وإنك لا تخون ما استودعت ، وإنك تصدق ووعدك ، وتفي بعهديك ، كان قد أثنى بما يجب ، ولكنه لم يصل بثأله إلى مقصده ، وقال ما لا يستحسن مثله في الملوك .

ونحن نعلم أن كل أمير تولى من أمور المؤمنين شيئا فهو أمير المؤمنين ، غير أنهم لم يطلخوا هذه اللفظة إلا للخلفاء خاصة ، وتعلم أن الكيس هو العفل إذا عنوا به

ضد الحق ، ولكك لو وصفت رجلا فقلت : إن فلانا لعاقل ، كنت قد مدحته عند الناس ، ولو قلت إنه كئيب كنت قد قصرت في وصفه ، وقصرت به عن قدره^(١) ، إلا عند أهل العلم باللغة ، لأن العاقلة لا تلقت إلى معنى الكلمة إلا إلى حيث جرت منها العادة في استعمالها في الظاهر ، مع الحدائث والعزة^(٢) وخساسة القدرة وصغر السن ، فقد روينا عن علي رضي الله عنه أنه تصحح بالكيس حين بنى [مجن] الكوفة وقال :

أما ترائي كيبا مكيبا * بنيت بعد نافع مجيبا^(٣)
حصنا حصينا وأميرا كيبا^(٤)

وقال آخر :

« ما يصنع الأحق الموزوق بالكيس »

وتعلم أن الصلاة رحمة ، غير أنهم قد حرموها إلا على الأنبياء ، كذلك روى عن ابن عباس رضي الله عنه . وسمع سعد بن أبي وقاص أخا له يابى ويقول : ياذا المعارج ، فقال : نحن تعلم أنه ذو المعارج ، ولكن ليس كذلك كما نلبي على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إنما كنا نقول : ليك اللهم ليك !

- (١) رواية العقد : « وصغرت من قدره » - (٢) عبارة العقد : « إذ كانت استعملت العادة لهذه الكلمة مع الحدائث والعزة - الخ » - (٣) في الأصل « العزة » وهو تحريف - (٤) في العقد : « تسمى بالكيس » . وروينا كان الأصوب « المكيس » وفي نوح مصر لآل عبد الحكم أن أهل مصر كانوا يسمون عبد الله بن عبد الملك « مكيبا » ص ١٢٢ (٥) زيادة شريفة عن العقد . (٦) نافع : حين بالكوفة كان خير مساكن النبلاء وكان من نصب فكان المحبوسون يهربون منه . (٧) الخيس : حين بالكوفة بناء أم المؤمنين على عهد حين نافع . (٨) في القيان : « يا كبير وأمير كيبا » - (٩) عبارة العقد : « وكذلك تسمى » - (١٠) في العقد : « ابن أخ له » .

وكان أبو إبراهيم المزني قال في بعض ما طالب به داود بن خلف الأصماني :
 وإن قال كذا فقد خرج من الملة والحمد لله ؛ فانتقد عليه ذلك داود وقال : نحمد الله
 على أن يخرج مسلم من الإسلام ، هذا موضع استرجاع ، ولحمد مكان يليق به ،
 ونحن نقول على المصيبة : إنا لله وإنا إليه راجعون .

(٩)

فامتثل هذه الرسوم والمذاهب ، وأجر على آدابهم ، فلكل رسوم امتثلوها .
 وتحفظ في صدور كتبك وفصولها ، وأفتاحها وخاتمتها ، وضع كل معنى في موضع
 يليق به ، وتخير لكل لفظة معنى يشاكلها . ولكن ما تحتم به فصولك في موضع
 ذكر الشكوى يمثل : والله المستعان ، وحسبنا الله ونعم الوكيل ؛ وفي موضع ذكر
 البلى : فبالحمد لله دفع المحذور . ونسأل الله صرف السوء ؛ وفي موضع ذكر المصيبة
 يمثل : إنا لله وإنا إليه راجعون ؛ وفي موضع ذكر النعم يمثل : والحمد لله خالصا
 والشكر لله واجبا ؛ فإنها مواضع ينبغي للكاتب تفقدها ، فإنما يكون كاتباً إذا وضع
 كل معنى في موضعه ، وعلق كل لفظة على طبقها من المعنى ، فلا يعمل أول
 ما ينبغي له أن يكتب في ثمر كتابه ولا آخره في أوله ؛ فإن سمعت جعفر بن محمد
 الكاتب يقول : لا ينبغي للكاتب أن يكون كاتباً حتى لا يستطيع أحد أن يؤخر
 أول كتابه ولا يقدم آخره .

(١) في العقد « إبراهيم » فقط . (٢) في الأصل : « داود بن علي خلف » وهو معروف ، والتصويب
 عن العقد . (٣) في العقد : « ففضل عليه ذلك داود » . (٤) في العقد : « وإنما يقال
 في المصيبة » . (٥) في العقد : « فإن هذه المواضع يجب على الكاتب أن يفقدها ويحفظ بها » .
 (٦) في العقد « فإن الكاتب إنما يصح كاتباً » . (٧) في الأصل « حقيقياً » وهو معروف ، والتصويب
 عن العقد . (٨) في الأصل : « ولا أوله في آخره » . (٩) هو جعفر بن محمد بن خالد بن ثواب .
 انظر معجم الأدباء ، قالوت ج ٢ ص ٢٧ (١٠) عبارة العقد : « لا يكون الكاتب كاتباً » وهي أدق .

(١٠)

وأعلم أنه لا يجوز في الرسائل ما أتى في آتى القرآن من الإيصال والحذف ،
ومخاطبة الخاص بالعام ، والعام بالخاص ، لأن الله سبحانه وتعالى إنما خاطب
بالقرآن أقواما فصحاء فهموا عنه — جل شأنه — أمره ونهيه ومراده ، والرسائل إنما
يخاطب بها قوم دخلاء على اللغة لا علم لهم بلسان العرب . وكذلك ينبغي للكاتب
أن يتجنب اللفظ المشترك ، والمعنى الملتبس ، فإنه إن ذهب على مثل قوله تعالى :
﴿ وآمال القرية التي كفا فيها والغير التي أقبلنا فيها ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ بل مكر الليل
والنهار ﴾ ، احتاج أن يبين [أن معناه : أسأل أهل القرية وأهل العبر ، و | بل
مكر كمال الليل والنهار ، ومثله في القرآن كثير .

(١) في الحذف : « استعمل ما أتت به آتى القرآن » .

(٢) في اللغة : « الانقصار » وفي نهاية الأرب « الانحصار » .

(٣) وردت هذه الآية في الأثرين بحرفه . انظر سورة يوسف . ورقم الآية ٨٢

(٤) انظر النصف ٣٤ : ٣٢

(٥) زيادة عن نهاية الأرب ج ٧ ص ١٨٧

(٦) بمناسبة الحذف جاء في الأثرين أن عرب كتبت إلى جماعة من أهل الأدب منهم إبراهيم بن
الهدبر وسعيد بن حميد ويحيى بن عيسى : « بسم الله الرحمن الرحيم . أريدت ولولا ولعل » ووجهت إليهم
الرفقة : فلما وصلت فرسها وضربا بجوابها . فأخذها إبراهيم بن الهدبر فكتب تحت أردت : ليت . وتحت
لولا : ماذا ، وتحت لعل : أريو . ووجه بالرفقة إليها — ص ١٢١ ج ١٩ طبع الثاني .
وفي ما قوت من رجل كان ينادى ابن الهدبر قال : كنت عسده ذات يوم فربعت غلام له فأفذه في عبي .
لا أدري ما هو فقال له : ما صنعت ؟ فقال : ذهبت ولم يكن نظام يحيى . بقاء فلم يحيى بخت . وهكذا
ذهبت إلى الغلام ولم يكن أبوه هناك فقام الغلام يحيى . بقاء . أبوه فلم يحيى الغلام بخت أنا (ص ٢٩٣ ج ١
جميع الأدباء .

ومنهم من أن هذا الحذف لا يكون إلا لغرض التعمية أو التفتيح . وغرض ابن الهدبر في الرسالة
أن يشير إلى التكتات العامة .

(١١)

ولا يجوز في الرسائل ما يجوز في الشعر لأن الشعر موضع اضطراب فاشتقوا فيه الإغراب وسوء النظم والتقديم والتأخير والإصرار في موضع الإظهار : فمن الحذف قول الخطيب : "من صنع سلام" يريد سليمان بن داود ، وكقول الآخر : "والشيخ عثمان أبو عفان" ، وكقول الآخر :

وسائلة بتعليق بن مسير • وقد علفت بتعليق العلق

أراد ابن سرار ، وكقول النابغة :

(١) عبادة الحقد ونهاية الأرب :

"وكذلك لا يجوز أيضا في الرسائل ما جاز في الشعر من الاشعار الوزنية ، لأن الشعر مصطر ، والشعر مقصور مفيد الوزن والقوافي ، ولذلك أجازوا لهم صرف ما لا يضر من الأسماء وحذف ما لا يحدف منها ، واشتقوا فيه سوء النظم ، وأجازوا فيه التقديم والتأخير ، والإصرار في موضع الإظهار ، وذلك كله غير مانع في الرسائل ، ولا جاز في البلاغة " من ١٩٩ ، ٢٠٠ ج ٣ .

(٢) ورد البيت في العقد كاملا :

فيها الزمان وفيها كل ما ينفذ • جدلا مسرودا من صنع سلام
والشعر الأخير ، ورد في الزهر هكذا :

• جدلا محكمة من صنع سلام •

(ص ٢٤١ ج ٢ طبع بولاق)

وردد في الجواليق ص ٨٥ طبع أوربا :

• جدلا محكمة من صنع سلام •

وذكر ابن (جلال) محذرا عن (جدلا) .

(٣) ينبغي أن لا يحذف أن أكثر أهل مصر يقولون : «فلان أبو فلان» بمعنى «ابن فلان» ،

ويمكن أن يكون هذا بقية من بعض التعابير القديمة . وقد ورد البيت كاملا في العقد ، وددعه :

من تسبيح داود أبي سلام • (٤) الخلق بالفتح : المنة .

• ونسج سلم كل قضاء ذاتي^(١) •

يريد سليمان •

وكذلك ينبغي في الرسائل ألا يصغر الاسم موضع التعظيم وإن كان ذلك جائزا
على مثل قولهم : دويبة وجدي^(٢) وعديق •

(١) قضاء : على وزن شداد الفرع الحكمة - وذائق : طويل الذيل • وفي الأصل : كل قضاء
تأزله وهو تعريف • ومشر البيت : وكل صنوت تلة لعلية • أنظر المهرج ج ٢ ص ٣٥١ والعقد
الخير في دواوين السنة الجاهلية - طبع لندن ص ٢٢ — وفي العقد الجديد تنويع حذف غير ما مر به :
• قوامنا ملك من ورق الحة •

يعني الخادم •

وقول الآخر : • صفر الوشاحين ميموث الخطل • يراد : الخطل •
وقول الآخر : • داريلبي رعد من هراك • يراد : يذهي •
وقال الآخر :

رلمت بكيسة ولا أستطيع • ولاك اسحق إن كان أولك ذا فضل
أراد : ولكن

وزاد المهر قول الآخر :

فذا لست الأيام والعصر تعلوا • على غروب أمه عذاب لمسه
أراد : بعد الله تعريجه به في بيت آخر من القصيدة
وقال آخر :

• هو يمشي أطراف الأسمه حور •

يريد : أين حور • النظرية الشواهد ص ٢٥١ ج ٢ •

(٢) في الأصل «عزيق» بالزاي المعجمة وهو تعريف - وأضاف العقد : «جدي» : تعبير جند •
وعديق : تعبير على • وزاد التوابع الآتية :
قال الشاعر وهو لبيد :

وكل أناس سوف تدخل بينهم • دويبة تعفر منها الأنامل

وقال الخياط بن المنذر يوم سبعة في ساعة : أما عديقها المريب • وجديها الخفاني •

ومما لا يجوز في الرسائل : كلمت إليك وأعني إليك^(١) .

وإساءة النظم في التأليف في الشعر كثير .

وتكون الكلمة بشعة حتى إذا وضعت موضعها وقرئت مع أخواتها حسن حالها

ورأيت ، كقول الحسن بن هاني :

• ذو حُضُرٍ أقلت من كد القيل •

والكدة كلمة فظة لا سيما في الرقيق والغزل والتشبيب ، غير أنها لما وقعت

في موضعها حسنت ، كما أن اللفظة العذبة إذا لم توضع موضعها تفرت ، قال :

رأيت عارضا جونا فقامت غريرة • نمتحانها قبل الظلام تبادره

فأوقع الخلف الباطي هذه اللفظة غير موقعها ، وظلمها إذ جعلها في غير مكانها ، لأن

المساحي لا تكون ولا تصلح للغرائر ، وأين كان عن قول الشاعر :

غرائر ما حدثت^(٢) يهدين أنسة • لما فوقه منهن غير غرائر^(٣)

حديث لو أن العصم^(٤) تدعى به أنت • ودون يد الفحشاء حد البوار

فتغير من الألفاظ أوجها وزا • وأجزلها معني ، وأبلغها في مكانها [وأشكها

في موضعها] .

(١) زاد في العقد أن هذا جائز في الشعر . قال الشعر :

وأحسن وأجمل في أميرة أنه • ضعيف ولم يأمرك بك أسر

وقال الزاوي : • إليك حتى بلغت إليك •

(٢) كذا في الأصل والمعنى غير ظاهر . وقد يجوز أن تقرأ • لما فوقه منهن غير غرائر • ويكون

المراد أن أولئك الحسنات تطلب عليهن النزة والسفاهة حين يكرمت الحديث لبعض الناس ، فإذا أريد
بالحديث ما فوق ذلك من إمامات الرتبة نعت غير غرائر وامتنعت بسوء النعت .

(٣) العصم جمع أعصم : وهو من الغباء . والوعول داء ذراعيه أو في أحدهما بياض ، وسائر أسود

أو أحمر ، والمقوت عصا ، والعصم معرفة بشدة القفر . وذلك مع الشاعر أن يصف حديث الملاح

بالقدرة على جذب التوافر من الوعول والغباء . (٤) زيادة من العقد .

(١٢)

وليكن في صدر كتابك دليل واضح على مرادك، وأفتاح كلامك براهان شاهد على مقصدك^(١) حينما جريت قبسه من فنون العلم، وتزيعت نحوه من مذاهب الخطب والبالغات، فإن ذلك أبزل لمعانك، وأحسن لأتساق كلامك . ولا تطيل صدر كلامك إطالة تخرجه من حده، ولا تقصر به عن حقه .

ولو صور اللفظ وكان له حد لوقفك عليه، غير أنهم في الجملة كرهوا أن يزيدوا سطور كتب الملوك على سطرين، وهذه إشارة لا تعبر إلا عن الجملة من المقصود إليه، لأن الأسطر غير محدودة .

(١٣)

وأعلم أن أول ما ينبغي لك أن تصلح آلتك التي لا بد لك منها، وأدواتك التي لا تم صناعتك إلا بها: وهي دوائك، فأبدأ بعبارتها وإصلاحها، وتخير طائفة نقيه من

(١) هذا يذكر بكلمة ابن المقفع « وليكن في صدر كلامك دليل على حاجتك كما أن غير آيات الشعر البيت الذي إذا سمعت صدره عرفت قافيه » . انظر البيان والتبيين ص ٩٦ ج ١ وزهر الآداب ص ٩٦ ج ١ طبع سنة ١٩٢٥ . (٢) الدواء يجمعها دوى على نواة ونوى . ومن دويات مثل نويات . ودوى أيضا بضم الدال وتشديد الباء مثل غداة وفنى . قال أبو ذؤيب .
عرفت الدبار كعرف الدوى * بتعبيره الكتاب الحسبى
وقال زهير :

أمن آل سبلى عرفت الطلولا * كخط الدوى ما ثلاث متولا

(٣) الكلمة مأبوضع في المراد من صسوف أو عوفة . فان كانت من القطن خاصة فهي الكرف . ويقال ألفت الدواء إذا أصلحتها وصوّدت مدادها فأنا أليتها إلانة . فهي ملانة وأما ملق . وفي لغة أخرى لقيها فأنا أليتها لقا . وفقد لاقى الدواء نفسها أي اسودت . فهي لائقة . ومن هذا قول : ما لاقى المرأة حد زوجها . أي ما لاقى بقاءه . وفلان ما يلقى شيئا أي ما يثبت في يده شيء . قال الشاعر :
تقول إذا أهلك ما لا تملك * قبلة حسل شيء بكفت لا تلقى

ومنه قول الأصمعي : دخلت على الرشيد في بعض قدامي فقلت : « ما ألقى الأرض حتى رأيت أمير المؤمنين » أي ما أفضته بها ولا قبله . انظر أدب الكاتب ص ٩٩ ، ١٠٠ . وكتاب الكاتب ص ٩٤

الشعر والودج^(١) ثلاثا يخرج على حرف قلبك ما يفسد كتابك ، ويشغلك بنفسه ، وخذ من المداد الفارسي خمسة دراهم ، ومن الصمغ العربي درهما ، وعفصا مسحوقا نصف درهم ، وورماد القراطاس المحرق درهمين ، ثم تسحقها وتغربلها وتجمعها ببياض البيض ، ثم يندقها وأجعلها في الطال ، فإذا احتجبت إليها أخذت منها مقدار حاجتك فكسرتة وحشوت به دوائك ، وإذا نضجت في ماء السلق حتى يخل ويذوب ويغمر ثم أمددت من مائه دوائك كان أجود وأبقى . ثم اختر بعد ذلك من أنابيب القلم^(٢) الذي يصلح لكتابة القراطيس أقله عشرة^(٣) ، وأكثفه لحما ، وأصلبه قشرا ، وأعدله استواء ، ونجش الأقلام الفارسية ما استطعت فإنها ما تصلح إلا للكواعد والرفوق .

(١٤)

وأجعل لقلبك راية حادة ، فإن تعثر يد الكاتب وقت قطع القراطاس ناقص مروءته ، ومخل بطرفه .

وإن قدرت ألا تقطع القراطاس إذا فرغت من كتابك إلا بخرطوم قلمك فافعل ، فإن ذلك أكمل لمروءتك ، وأبدع لطرفك وقطعتك .

(١) الودج بالذال المعجمة ما يتعلق بأصوات الغنم . وفي الأصح « الودج » بالذال المهملة . وهو تحريف .

(٢) الأنابيب جمع أنبوب وهو من القصب والفلأ . قال امرؤ القيس :
وكنتح لطيف كليلدي محمر * وساق كأيوب السبي المذل
ولا يسى الأنبوب فلأ حتى يقطع (انظر كتاب الكتاب ص ٩٣)

(٣) في الأصل « عشرة » وهو تحريف ، والصواب عن القند .

(٤) في الأصل « أنبله » رواه ابنه أنسب وهو يطابق ما في القند .

واستعمل ليرى القلم سكيناً طواويسياً، مذلقى الحذء، ومبيض الطرف، فيكون ذلك عوناً لك على برى أقلامك، فإن محل القلم من الكاتب محل الرمح من الفارس، ولئن قيل: كأنه الرمح الرديء فقد قال الكاتب: كأنه القلم البحري. وتنفذ الأنبوية قبل برئكتها لثلاث تجعلها منكوسة، وأبرها من ناحية نبات الفصبة، وأرهف ما قدرت جاتى قلمك، ليرد ما أنتشر من المداد، ولا تطل شفقهُ فإن القلم لا يتج المسداد من شفه إلا مفسداً ما احتملت شباته، فأرفع شبقه ليجمع لك حوائى تحضيره. وأما فقط القلم فعلى قدر القلم الذى يتعاطاه الكاتب من الخط، غير أن المسلسل لا يكاد يتسلسل إلا بالقلم المربع القط، كما أن كتب الملوك والسجلات لا تحسن إلا بالقلم المخرف الكوفى، وأما قلم اللازورد فهو المعتمد عليه، والمقصود إليه فى التواثب والمهمات.

(١) السكين يذكر وقد يؤتى، فمن تذكره قول أى ذاب:

يرى لاصحة فيما بدا فإذا خلا * فذلت سكين على الخلق حادق

أى قاطع، وفى تأنيهاً يقول بعض بنى تلب:

فأضحى قسام دادة غر * يسكين مؤلفه صاب

(أنظر أدب الكتاب ص ١١٥ - ١١٦).

(٢) قال الصرقى فى أدب الكتاب: « يقال: قطعت القلم أفضه قطاً. والقط والقط مضارعان: لأن القط أكثر ما يصل فيما وقع السيف فى عرضة، والقط لما وقع فى طوله. وسنة لومخ: كانت أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضوان الله عليه إذا علا صهقه شبة قده، وإذا أعترضه قط، وقد يحق هذا على هذا. وقال عمرو بن معد بكرب:

فكم قط سبى من غونس * غداة التقي ومن مفسوق

ومط حابيه ومه بمعنى، وإنما جاز ذلك فى فة وقط ومه ومط لأن خرج الظاء والهمزة فى مكان واحد من أصول الثنايا ومطرف اللسان، كما يقال: طين لازب ولازم، لأن خرج الياء والميم من الشفة فى مكان واحد. أنظر ص ٩ - ١٠ - ١١ - قال ابن درستوبه: « ونقول: قطعت القلم فمنا إذا قطعت من طرفه ليرى ليرى » كتاب الكتاب ص ٩٢

ورأيت كثيرا من الكتاب يختارون قلم الترجيس لتجمده وتجانسه ومن اللازورد
أبسط منه وأقوم حروفا . وأما الموشع والمولع والمديج والمنعم والمسمم فعلى قدر
رشاقة خط الكاتب وحلاوة قلمه .

وأما حسن الخط فلا حد له . قال على بن زبير النصراني الكاتب : أعلمت
الخط في كلمة واحدة : لا تكتب حرقا حتى تستفرغ مجهودك في كتابة الحرف
المبدوء به ، وتعمل في نفسك أنك لا تكتب غيره ، حتى لا تعمل عنه إلى غيره .

(١٥)

وإياك والنقط والشكل في كتابك ، إلا أن تمر بالحرف المعضل الذي تعلم أن
المكتوب إياه يعجز عن استخراجه ، فلا أن يُشكل على الحرف أحب أن من أن
يعاب بالنقط والإعجام .

وقال المأمون لكاتبه : إياكم والشونيز في كتبكم ، يعنى النقط [والإعجام] .
ولذلك قال ابن هاني :

لم ترض بالإعجام حين كتبه ، حتى شكلت عليه بالإعراب

(١٦)

ولا تغفل الصلاة على النبي عليه الصلاة والسلام ، فقد قال أبو العيناء : أن
بنى أمية هم الذين كانوا أمروا كتابهم فطرحوا ذلك من كتبهم ، فحرقوا عادة الكتاب

(١) غير واضح وجود "من" هنا ، ولو حذف لاستقام الكلام .

(٢) في الأصل : « فاني سمعت سعيد بن جندب الكاتب يقول : لأن يشكل على الحرف - الخ » .

(٣) في الأصل : « إياي » والتصحيح عن العقد . (٤) زيادة عن العقد .

(٥) في الأصل : « حتى كتبت الب » وهو تحريف ، والتصحيح عن أدب الكاتب ص ٦١

وهذا البيت من قطعة مستقلة لأي نوا من أرواح :

يا كاتباً كتب القصداء يسنى « من ذا يخلق براعة الكتاب !

الى يومنا هذا على ما سنوه . وقد قال عليه الصلاة والسلام : « لا تجعلوني كقدح
الراكب ، ولكن اجعلوني في أول الدعاء وأوسطه وآخره » صلى الله عليه وعلى آله
وسلم أولا وأوسط وآخره .

وأحب أن تعمل بدل الإشارة التراب^(١) فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« أتربوا كتبكم فإنه أنجح للحاجة »^(٢) .

(١٧)

ولا تدع التاريخ فإنه يدل على تحقيق الأخبار وفريها وبعدها ، وأنظر الى ما مضى
من الشهر وما بقى منه : فإن كان الماضى أقل من نصف الشهر قلت لكنا ليلة^(٣)
مضت من شهر كذا ، وإن كان الباقى أقل من النصف قلت لكنا أيضا بقيت .
وقد قال بعض الكتاب : إن الماضى من الشهر تخصيه والباقى لا تخصيه ، لأنك لا تدري^(٤)

(١) « الإشارة » بضم الهاء من إشارة الخشب ، والكلمة الثانية أكثر استعمالا ، جاء فى الجزء الأول
من فتح العليب ج ١ ص ٤٧٧ طبع لندن : إن العرب كتب كتابا فأشار عليه أحد من حضر أن يذر عليه
مشارة فقال :

لا تشه بما يذر عليه . فكفاه محبوب هذا المراء .

فكان الذى يذر عليه ■ يدرى وجهة حساء .

(٢) راجع ما جاء فى إزrab الكتب فى « منتخب كثر العمال » على هامش مستند ابن خلدون ج ٤
ص ١٦٦ وظاهر أن الكتاب بدأ فى أكثر ما وضع من الأحاديث خاصة بهذه الكتابة وأدراكها . وقد قص
المرسل على أنه لا يقال : « أترب كتابك » وهذا الشاهد ينقض ما قال .

(٣) انظر ص ١٨٠ وما بعدها من أدب الكتاب وص ٨٥ وما بعدها من كتاب الكتاب .

(٤) فى الأصل « أن تخصيه » .

أبتم الشهر أم يتقص ؟ وليس هذا بشيء ، لأن تاريخ الكتاب ليس من الأحكام في شيء ، وما على الكاتب أن يكتب إلا بما ظهر وتبين لا بما يظن .

(١٨)

ولا تجعل خفاة كتبك غليظة إلا في العهود والسجلات التي تحتاج إلى خواتمها وطوايحها ؛ فإن محمد بن عيسى الكاتب كاتب آل طاهر أخير عنهم أن عبد الله بن طاهر كتب إلى العراق في إشخاص كاتب كان كتب إليه فكتب وعظّم حمأة كتابه ، فردّ الكتاب إليه ، فقدم عليه راجياً ليرده وجازته ؛ فقال عبد الله بن طاهر : إن كان معك مسحة فأقطع نعيم كتابك وأنصرف ورائك .

وكذلك لا تعظم الطينة ، ففي المثل : من عظم الطينة فإنه ملوم^(١) . ولا تطبعها إلا بعد عنوانها ، فإن ذلك مراد بهم^(٢) .

وقد يجب عليك علم إصاق القراطيس ومحوها . ولم أر شيئاً في إصاقها أظف من أن يُنقع الصمغ العربي في المساء ساعة حتى يذوب ثم يُلصق به ، وكذلك

(١) في الأصل : «أمر» .

(٢) السحابة مثل عفاة ، والسحابة مثل عفاة : ما شمد به الكتاب من خيط ونحوه ، يقول صرحت الكتاب أصوره صحراء وصحبت أسماء حبا ، والروا أكثر . وزاد ابن درستويه : أصبحت الكتاب فأ ، أصيد إصاخ ، وإصاخة حسنة فأنا مسح . وإذا كانت كتب كثيرة فأت : صبيها ، باششدي . فأنا أصحيا تسحية ، وأنا مسح وهو مسحي .

(٣) يقال : طينت الكتاب إذا جعلت عليه طين الخاتم ، ويقال طنت الكتاب طينه . فإذا أمرت فأت : طين كتابك ، وإذا شئت فأت : طين كتابك . والطينة : الطابع على الكتاب والصك . والآن يستعمل الشح مكان الطين ، فإذا أمرت لك : شح كتابك .

(٤) في الأصل : «معلوم» وهو تعريف .

(٥) في الأصل : «بهم» بالياء الموحدة وهو تعريف .

ماء الكثير أو الشاسنج^(١٢)، ثم تطويه طياراً رقيقاً وتجعله في مندبل نظيف ويوضع تحت^(١٣)
ومادة حتى يجف . وأما نحوها فعلى قدر لطف الكاتب وتأنيده، غير أنه ينبغي له^(١٤)
أن يلقط السواد من القوطاس إلا بمنى الشمع المسحق والليان المنضوع وما أشبههما،
ثم يكون لقطه رويداً رويداً كلما لفظ جانباً حوله إلى الجانب الآخر .

(١٩)

وأما قراءة الكتب المختومة والتلطيف لقض خواصها^(١٥)، فما لا تذكره خوفاً من
سقيه .

وأما تضمين الأسرار حتى لا يقرأها غير المكتوب إليه فبده أدب، وقد تعلقت
العامة بالقصي والأصهباني، فيجب أن تبدل الحروف تبديلاً يخفى . وأنظف من ذلك
أن تأخذ ثبناً خليلاً فتكتب به في قوطاس، فيذكر المكتوب إليه عليه وماداً حازراً من^(١٦)
وماد القراطيس فإنه يظهر . وإن كتب بماء الزاج وذر عليه العفص المدقوق بزاج^(١٧)
أو بماء العفص وذر عليه شبة من الزاج أو ينقع شبة من وثق^(١٨) ثم تكتب به

(١) الكثير طلع النخل . وهو في كتب الفقه « الكثر » بالفتح والتعريف .

(٢) قال الخفاجي في شفاء الغليل في كلامه على شفاءه مغرب لشاميه وقال الجوهرى هو الشاسنج فارسي
مغرب حذف شيرة تخفيفاً كما قالوا فثازل ما .

(٣) في الأصل « يرفع » .

(٤) الضمير عائد على القراطيس، ولعلنا أنه أن المؤلف ذكر ضمير قبل ذلك إذ قال : « ثم نظريه
طياراً رقيقاً وتجعله في مندبل نظيف » .

(٥) في الأصل « لقض » وهو مخرب (انظر ص ١٢٤ من أدب الكتاب للصولي) .

(٦) في الأصل « طياراً » وهو مخرب . (انظر ص ٢٢٩ ج ٩) .

(٧) في الأصل « بجاز » وهو مخرب (انظر ص ٢٢٩ ج ٩) .

(٨) الوثق : نوع من العشب ، وكان مما يكثر به العروس عند البلوغ ، كما أفادنا الأستاذ مغرب
ونحن نراجع معه هذه النصوص .

ثم ثرت عليه الرماد فإنه يظهر، وإن أحببته لا يُقرأ بالنهار ويُقرأ بالليل فأكثبه
بمرارة السلحفاة^{١٦١}.

(٢٠)

وإن حاولت صنعة رسالة أو إنشاء كتاب فزِن اللفظة قبل أن تخرجها بميزان
التصريف إذا عرّضت، والكلمة بعبارة إذا استعنت؛ فربما من يك موضع يكون
مخرج الكلام إذا حسب إذا غل أحسن من إذا قل، واستغلت أحل من فلت .
وأدبر الألفاظ في أمّا كتبها، وأعرضها على معانيها، وقبّلها على جميع وجوهها،
حتى تقع موقعها، ولا تجعلها قلقة نائرة، فمضى صارت كذلك هجنت الموضع الذي

(١) في هذه الأسطر ركازة وضعت .

(٢) بمناسبة إعفاء ما في الكتاب قال في صبح الأمل ص ٢٢٩ ج ٩

« وقد ذكرنا ذلك طريقاً : منها أن يكتب في الورق بين حبيب يد خلط به نولاد، فإنه لا ترى فيه
صورة الكتابة فإذا قرب من النار ظهرت الكتابة .

ومنها أن يكتب في الورق أيضاً ماء البصل المفص منه فلا ترى الكتابة : فإذا قرب من النار
ظهرت الكتابة .

ومنها أن يكتب فيها أراد من ورق أو غيره ماء قد خلط فيه زاج فلا تظهر الكتابة : فإذا مسح بماء قد
خلط فيه المنفص المدقوق ظهرت الكتابة .

ومنها أن يكتب في الورق غيم المغني والشب المحلول بماء المطر ثم يلقيه في الماء أو يمسحه به
فإنه إذا جف ظهرت فيه الكتابة .

ومنها أن يكتب بمرارة السلحفاة فإن الكتابة بها ترى في الليل ولا ترى في النهار .

ومنها أن تأخذ الجيوت الأسود وورق الخنظل المشكوة يربط الزيتون بيدين متساو بين وتسطهما
فأعسا ثم تطرف إليهما دهن صفار البيض وتكتب به على جسد من شئت فإنه يثبت الشعر مكان الكتابة
وهو من الأسرار العجيبة : فإذا أريد إرسال شخص بكتاب إلى مكان بعيد فعلى به ذلك، فإنه إذا ثبت
الشعر طرئت الكتابة . وفي ص ١٠٧ من أدب الكتاب كلمة عن الكتابة في الرأس، وفي ص ٢٤ من البيان
المغرب طبع دوزن كلمة عن وضع الكتابة في الفم .

(٣) في نهاية الأرب ج ٧ ص ١٨٨ : « وأدبر الكلام في أمّا كتبها . الخ » .

أردت تحسينه . [وأفسدت المكان الذي أردت إصلاحه] وأعلم أن الألفاظ
في [غير] أما كنيتها [والقصد بها إلى غير مقالتها] كترقيع الثوب الذي إذا لم يتشابه
رقاعه [ولم تتقارب أجزأؤه] خرج عن حد الجدة و [تغير حسنه] قال الشاعر :
إن الحديد إذا ما زيد في خلق • تبين الناس أن الثوب مرقوع

(٢١)

وآرتصد لكالك فراغ قلبك ، وساعة نشاطك ، فتجد ما يمنع عليك بالعكد
والكلف : لأن سحابة النفس يمكنونها ، وجود الأذهان يخزونها ، إنما هو مع الشهوة
المفرطة في الشيء ، والمحبة الغالية فيه ، أو الغضب الباعث منه ذلك . قيل لبعضهم :
لم لا تقول الشعر ؟ قال : كيف أقوله وأنا لا أغضب ولا أطرب .

وهذا كله إن جريت من البلاغة على عرق ، وظهرت منها على حظ ، فأما إن
كانت غير مناسبة لطبعك ، ولا واقعة شهوتك عليها ، فلا تنض مطيتك في الغمامها ،
ولا تتعب بدلك في ابتغالها ، وأصرف عنائك عنها ، ولا تطمع فيها باستعارتك ألفاظ
الناس وكلامهم ، فإن ذلك غير منمرك ولا يجيد عليك . ومن كان مرجعه فيها
إلى اغتصاب ألفاظ من تقدم ، والاستضاءة بكوكب من سبقه ، وصحب ذيل حلة
غيره ، ولم يكن معه أداة تولد له من يشاك قلبه وتنازع ذهنه ، الكلام الحر والمعنى
الجزل ، فلم يكن من الصناعة في غير ولا تغير .

(١) زيادة عن نهاية الأرب .

(٢) زيادة ضرورية .

(٣) في الأصل : « التبر » .

(٤) انظر وصية بشر بن المنصور في البيان والتبيين من ١-٢ ج ١ ووصية ابن تمام البصري

في زهر الآداب من ١٠٠ ج ١

(٥) اقترن التبر هنا بالفاء ، وذلك جائز إذا كان المبدأ ما كان هنا . وكقوله تعالى : (وما كن من

نفسه من الله) .

(٢٢)

على أن كلام العظماء المطبوعين ودرس رسائل المتفهمين ، على كل حال ، مما يفتق اللسان ، ويوسع المنطق ، ويشهد الطبع ، ويستثير كوامنه إن كانت فيه سجية .

قال العنابي : ما رأينا فيها تصرفاً فيه من فنون العلم ، وبحرنا فيه من صنوف الآداب ، شيئاً أصعب مراناً ، ولا أوعر مسلكاً ، ولا أدل على نقص الرجال ورجاحتهم ، وأصاله الرأي وحسن التمييز منه واختياره ، من الصناعة التي خطبتها ، والمعنى الذي طلبته . وليس شيء أصعب من اختيار الألفاظ وقصديك بها إلى موضعها ؛ لأن اللفظة تكون أخت اللفظة وقسيمتها في الفصاحة والحسن ، ولا تحسن في مكان غيرها . وبتجيز هذه المعاني ، ومناسبة طلائع جهابذتها ، ومشاكلة أرواحهم ، جعلوا الكتابة تسباً وقراءة ، وأوجبوا على أهلها حفظها .

سهيل بن وهب ^(٢١) : الكتابة نفس واحدة تجزأت في أبدان مفترقة ، ومن لم يعرف فضلها ، وجهل أهلها ، وتعدى بهم رتبهم التي وضعمهم الله بها ، فانه ليس من الإنسانية في شيء .

قالت البرامكة : رسائل المرء في كتبه دليل على ثقله ، وشاهد على غيبه .
قال الشاعر :

وتُكرود المسرء في لحظ عينه * وتعرف عقل المرء حين تكاتبة

آخر :

وشعر الفقي يُبدى غريزة طبعه * وبالكاتب يبدو عقله وبلاغته

(١) في الأصل : « ولا يحسن » بالياء المشددة من تحت .

(٢) في القيد « الحسن » .

(٣) في الأصل : « وصفهم » .

الشعبي : يعرف عقل الرجل اذا كتب و أجاب .
 العتي : عقول الناس مدونة في كتبهم .
 ابن المقفع : كلام الرجل وافد عقله .

(٢٣)

وشبهت الحكماء المعاني بالنوائى ، والألفاظ بالمعارض ؛ فإذا كسا الكاتب البليغ
 المعنى الحسنى انطقا رائقا ، واعاره مغرجا سهلا ، كان للقلب أحلى ، وللصدر أملا ،
 ولكنه يق عليه أن ينظمه في سلكهم مع شفافته كاللؤلؤ المنشور الذي يتولى نظمته الخادق .
 والجوهرى العالم يظهر بإحكام الصنعة له حسنا هو فيه ، ومنحه راحة هي له ، كما أن
 الجاهل إذا وضع بين الجوهرين خزفة تهن نظمته وأطفأ نوره . كان حبيب بن أوس
 ربما وقع على جوهرة فجعلها بين بعريين . قال الشاعر :

ولو قسرت بدر فاطر خسرا * من الزجاج لقلنا بئس ما نظما

والياقوت حسن ، وهو في جيد الحسنة أحسن ، وكذلك الشعر الجيد موفى ولكنه
 من أفواه العطاء أتى ، والساج الشريف بهى المنظر وهو على الملك أبهى ، كما قال
 ابن [فيس] الرقيات :

• بتدل التاج فوق مقرقه •

قال أبو العتاهية لأبن منبدر : بلغنى أنك تقول الشعر في الدهر ، والقصيدة
 في الشهر ، فقال : نعم لو رضيت لنفسى أن أولف تأليفك وأقول :
 • يا عتب يادرة الغواص •

(١) ربما كان الأصوب « أو » .

(٢) في الأصل : « ومنحة » .

(٣) زيادة ضرورية ، واسم ابن قيس الرقيات : عبد الله ، وهو من شعراء العصر الأموى .

^(١)
لقلت في اليوم والليلة ألف قصيدة .

وقال عمر بن الخطاب شاعر : أنا أشعر منك ؛ قال : ولم ؟ قال : لأنك تقول
البيت وابن عمه وأنا أقول البيت وأخاه .^(٢)

(١) الذي في الأتي أنه اجتمع أبو النخبة ومحمد بن مناذر فقال له أبو النخبة : يا أبا عبد الله
كيف أنت في الشعر ؟ قال : أقول في البلية إذا منع القول وانصبت القوافي عشرة أبيات إلى خمسة
عشر . فقال له أبو النخبة : لكنني لو شئت أن أقول في البلية ألف بيت لقلت ؛ فقال ابن مناذر : أجل !
واحدة إذا أردت أن أقول مثل قولك :

ألا يا عبدة الساعة • أموت الساعة الساعة

قلت . ولكن لا أعرف قدي مثل هذا الكلام الصائغ ولا أصبح لما به من الخليل أبو النخبة وقام يحز وجهه !
ص ١١ ج ١ ص ١٢ طبع السامري .

وفي ص ٢٩ أن أبا النخبة إلى ابن مناذر بمكة بغدي يذمه ويصاحبه ثم دخل على الرشيد فقال :
يا أمير المؤمنين ! هذا ابن مناذر شاعر البصرة يقول قصيدة في سنة وأما أقول في سنة ما بين قصائد ؛
فقال الرشيد : أدخله إلى قاعة خله إليه وقل له يسمع عنده ؛ فدخل فصلى ودعا ؛ فقال : يا هذا الذي
يعلمك عنك أبو النخبة ؟ فقال ابن مناذر : وما ذلك يا أمير المؤمنين ؟ قال : زعم أنك تقول قصيدة
في سنة ، وأنه يقول كما أركب القصيدة في السنة ؛ فقال : يا أمير المؤمنين ! لو كنت أقول كما يقول :

ألا يا عبدة الساعة • أموت الساعة الساعة

لقلت من كثرة ؛ ولكن الذي أقول :

إن عبد الحبيب يوم تولى • حذر ركة ما كان يتهمل

ما يرى نعلنه ولا حائله • ما على النعل من غلاف وجود

فقال له الرشيد : حالتها فأنشدتها ، فأنشده ؛ فقال الرشيد : ما كان ينبغي أن تكون هذه القصيدة إلا
في خليفة أو من عهد ! ما أحب إلا أنك قلتها في سوفة ! وأمر به بمشراة آلاف درهم ؛ فكان أبو النخبة
يموت غما واسفا .

(٢) وردت هذه العبارة مختلفة بعض الشيء في البيان والتبيين ص ١٢٩ ج ١ طبع سنة ١٩٢٦

(٢٤)

فإن مُنيت بحب الكتابة وصداعتها ، والبلاغة وتأليفها ، وجاش صدورك بشعر
معقود ، أو دعتك نفسك إلى تأليف الكلام المنثور ، وتبأ لك نظم هو عندك
معسول ، وكلام لديك منسق ، فلا تدعوك الثقة بنفسك ، والعجب بتأليفك أن
تهجم به على أهل الصناعة ؛ فأنك تنظر إلى تأليفك بعين الوالد لولده ، والعاشق إلى
عشيقه ؛ كما قال حبيب :

ويسىء بالإحسان ظنا لا كن . هو بأبسه وبشعره مفتون^(١)

ولكن أعرضه على البقاء والشعراء والخطباء ممزوجا بغيره ؛ فإن أصغروا إليه ،
وأذنوا له ، وتخصصوا بالأيصار واستعادوه وطبوه منك وأمتزج^(٢) ، فأكشف من تلك
الرسالة والخطبة والشعر اسمه وأنسبه إلى نفسك . وإن رأيت عنه الاستماع منصرفة^(٣) ،
والقلوب عنه لاهية ، فاستدل به على تخلفك عن الصناعة وتقاصر عنك عنها ، وأسترب
رأبك عند رأى غيرك من أهل الأدب والبلاغة : فقد بلغني أن بعض الملوك دعا
إنسانا إلى مؤانسته حتى ارتفعت الحشمة بينهما فأخرج له كتابا قد غشاه بالخلود
وجمع أطرافه بالإبرسم وسوى ورقه وزخرف كتابته وجعل يقرأ عليه كلاما قد حبره
فيه وثاقه عند نفسه ، وجعل يستحسن ما لا يحسن ، ويغف على ما لا يستغفل

(١) عبارة الجاحظ : « فإن أردت أن تكلف هذه الصناعة ، وتغلب إلى هذا الأدب ، فقرضت
قصيدة ، أو صيرت خطبة ، أو ألقت رسالة ، فأياك أن تدعوك فتتك بنفسك ، ويدعوك بجبك بقرعة عفاك
إلى أن تخلعه وتخدمه » البيان ص ١٤٨ ج ١

(٢) سير الجاحظ عن هذا المعنى أدق تعبير إذا قال : « فلا تكن في كلامك برأى نفسك ، فاني
ر بما رأيت الرجل تهاك وتوق التماسك حتى إذا صار إلى رأيه في شعره وفي كلامه وفي آرائه مضافا
وعوق المفاقت » . (٣) انظر دبران أبي تمام ص ٣٣١

(٤) يريد : أمتزج بغيره من الجيد . (٥) في الأصل « العيون » وقد أنزل كلمة الجاحظ .

(٦) في الأصل « واهية » وهو تعريف .

قراءته حتى أتى على الكتاب، فقال له : كيف رأيت ما قرأت عليك؟ فقال : أرى عقل صانع هذا الكلام أكثر من كلامه . ففطن له ولم يعاوده إلى أن وقف به على شور مسجور ثم قدف بالكتاب في النار . وهذا رجل في عقله فضيلة وفيه تميز .^(١)
والأما البلية فبعض إذا بينت له سوء نظمه واختياره، ووقفته على سخافة لفظه ، هزرك وعاداك .

(٢٥)

فاجعل هذا الأصل ميزانا تزن به مذهبك في رسالتك وبلاغتك، ولا تخاطبين خاصا بكلام عام، ولا عاما بكلام خاص . فتى خاطبت أحدا بغير ما يشاكله فقد أبحرت الكلام غير مجراء وكشفته . وقصدك بالكلام الشريف للرجل الشريف تنبيه تقدر كلامك ورفع لدرجته ، قال :

فلم أمدحك تفخيا لشعوى . ولكنني مدحت بك المديحا

فلا تخرجن كلمة حتى تزنها بميزانها فتعرف تمامها ونظامها، ومواردها ومصادرها . وتجنب ما قدرت الألفاظ الوحشية ، وارفع عن الألفاظ السخيفة ، واقتضب كلاما بين الكلامين .

الملاحظ : ما رأيت قوما أمثل طريقة في البلاغة من هؤلاء الكتاب، فإنهم اتسموا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا، ولا ساقطا سوقيا .

وقال خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ما لا يحتاج إلى كلام، وأحسنه ما لم يكن بالبدوى المتعرب، ولا القروي المتعرج^(٢)، الذي صحت مبانيه، وحسنت معانيه، ودار

(١) مسجور : موقد .

(٢) فضيلة : زيادة ورقة .

(٣) في الأصل « أمدحه » وهو تعريب . راجع ديوان أبي تمام ص ٧١

(٤) المتعرج : المتعرج .

على المسن القائلين ، وحقق على آذان السامعين ، ويزداد حسنا على مرة السنين ،^(١٢)
بجولية الرواة ، وتنقية السراة .

والكاتب المستحق اسم الكتابة ، والبلغ المحكوم له بالبلغة ، من اذا حاول صنعة
كتاب سالت على قلمه عيون الكلام من يتابعها ، وظهرت من معادنها ، وبدت^(١٣)
من مواطنها ، عن غير استكراه ولا اعتصاب .

حدثنا صديق للعنابي قال له : اعمل لي رسالة ، واستمده مرة بعد أخرى ، فقال
له : ما أرى بلاغتك إلا شاردة ، فقال له العنابي : لما تناولت القلم تداعت على
المعاني من كل جهة ، فأحييت أن أترك كل معنى يرجع الى موضعه ، ثم أجنى لك
أحسنها .

أملى يزيد بن عبد الله أخو دينار على كاتب له ، وأعجمل عليه الإملا لفتقر قلم^(١٤)
الكاتب عن تقييد إملا له ، فقال متحرشا : اكتب باحسان ! فقال الكاتب :
أصلح الله الأمير ! إنه لما هطلت شآبيب الكلام ، وتداقت مسيوله على حرف
القلم كل القلم عن إدراك ماوجب عليه تقييده ، فليترك الأمير عذري . فكان
جوابه أبلغ من بلاغة يزيد .^(١٥)

(١) وقع المضارع هنا بعيل . (٢) في الأصل : « مرة » .

(٣) في الأصل : « تدرب » وهو تخریف . و بدت : أسرع .

(٤) استمده : طلب منه أرضاء المدة ، وفي العقد (فاستمده مدة) .

(٥) في العقد « ذبيان » .

(٦) يقال : أملت الكتاب وأملته . وقد تزل القرآن بالعنين جميعا . قال تعالى : « وقاروا أساطير
الأوّلين اكتبها فليس قلمي عليه » وقال : « فليدال عليه وله بالعدل » . (أنظر ص ١٢٥ من أدب الكاتب) .

(٧) أنظر ما جاء في توفيق غم ابن الخلف في أدب الكاتب ص ١٥٨ وظهر الآداب ج ١ ص ١٠٣

(٢٦)

وكنا حلولي الكلام وعذب ورق وسهلت مخارجه ، كانت أسهل ولو جاز
في الاستماع ، وأشد اتصالاً بالقلوب ، وأخف على الأفواه ، ولا سيما إذا كان المعنى
اليديع مترجماً بلفظ موثق شريف ، ومعبراً بكلام مؤلف رشيق ، لم يشبه التكلف^(١)
يُسَمِّيه ، ولم يفسده التعقد باستهلاكه ، كقول ابن أبي كريمة :

قفاه وجه حسن والذي • قفاه وجه يشبه الشمس
فهجن المعنى بتوعر مخارج الحروف • وأخذ الحسن بن هاني فضله وقال :
• بد حسن الوجوه حسن قفاكا •

وكلاهما من حسان حيث يقول :

قفاؤك أحسن من وجهه • وأمك خير من المنذر

وانظر إلى سلامة الحسن بن سهل حيث قال :

شیرست بل لنت بل قابلت ذاك بدا • فانت لاشك فيك الممهل والجبل
وكتب عيسى بن كريمة كتاباً إلى بعضهم فقصد كلامه وجاز المقدار في التنطع^(٢) ،
فوقع له :

أني يكون بليغا • من اسمه كان عيا
وثالث الحرف منه • إذا كتبت مسياً^(٣)

ودخل كاتب على مريض فوجده يئن فخرج من عنده فوجد طائراً يقال له
"الشغافين" بباب الطاق ، فاشتراه وبعث به إليه ، وكتب كتاباً ينتطع فيه ، ويذكر

(١) في الأصل : « فقط » وهو تحريف .

(٢) عن الصواب : « لم يشبه » .

(٣) في المتن « ال أخيه أبي الحسن » .

(٤) الشطر الأخير غير واضح المعنى . وفي المتن : « إذا كتب شيئاً » وهو تحريف الغرض .

أنه يقال له الشفانين شفاء من الأثرين . فأجابه : لو عطيت ضياء لم تكن عندي
إلا تبطيا ، فأقصر عن بفضك وسهل كلامك . ومثله بخلد الموصل يهجو حبيب بن
أوس الطائي :

أنت عندي عرقى^(١) . ليس في ذلك كلام^(٢)
شمر ساقيك ونظ^(٣) . بذك عزامي وتمام^(٤)
أنا ما ذني إيت كذ^(٥) . بني فيسك الأثم^(٦)
وفقا يحلف ما إن . أعرقف فيه الكرام

وسألني بعض أهل العلم أن أكتب له قصة أبي جعفر بن عبد الواحد القاضي
وقال : أكتب لي قصة سهلة بليغة الألفاظ ، فقلت له : دعني أكتب لك ما يصلح
للفضاة ، فغضب وقال : ما أسأل أن تعطيني شيئا ، إنما أسألك هذا المعنى الرخيص .
فأحتملت عتبه لئلام^(٧) ، فكتبت له قصة لا تصلح أن تدفع إلا لرؤبة بن العجاج
يقرأها أو الطرماتح ، فلما حصلت بيد القاضي أراد قراءتها فإذا هي مغلقة عليه ، فقال
له : أنت كتبت هذه القصة ؟ قال : نعم ، قال : أذا فقرأها ، فذهب ليقرأها فإذا

- (١) يشير إلى أن الضباب من ضباب الأعراب . وكانت الشعبية تعبر العرب بأكل الضباب .
أنظر من ١٥ من رسالة « الحنين إلى الأوطان » لملاحظ . وفي العقد بقية طويلة . من ٢١ ج ٣ .
(٢) كذا بالأصل والمعنى بيا غير واضح . وفي العقد « بعصك » وهي جملة وقعت في غير مكانها لأن
الترخيف مانع في الكلام عن تهجين ذلك الكاتب المتصنع .
(٣) لغز الصواب : ومثل يقول بخلد الموصل ، الخ .
(٤) في الأصل « عرقى » وهو عرقف .
(٥) في الأصل « عرقى والسلام » والذي أنشأه أوفق بمجموع القطعة كما رواها العقد .
(٦) تمام بالهاء المكنية بخلاف ما كان في الأصل بالهاء المقتاة من فوق .
(٧) البيت في الأصل محرف ، والتصحيح عن العقد . وقد رأينا البيت الأخير من هذا السب رواية
العقد لأنها أوفق . والقطعة بقية ، فراجع هناك . (٨) يريد : العهد كان له .

هي بالسودانية استعمالا عليه ، فقال له : أصنع الله القاضي إنما أقرؤها في بيتي ؛
فقال له : فأطلب حاجتك إذا في بيتك ؟ فرجع إلى غضبان أيضا يشتم ويؤذي ،
وسألني أن أكتب له قصة على ما أرى ، فكنت له كتابا يشبه أن يكون من مثله
إلى القضاء ، فقرأها وقضى حاجته ، وعلم أنه لم يكتب واحدة منهما !

والكتاب إذا لم يكن شيئا بحاجة صاحبه كان أحد الأسباب المانعة .

(٢٧)

والمعاني كلها مختلفة والكلام مشبعا ولكن سياسته صعبة وتأليفه شديد إلا على
جهابته وفرسانه أمراء الكلام يصرفونه كيف شاءوا . ولا يستحق اسم البلاغة
حتى يسابق معناه لفظه ونقطة معناه ، ويكون اللفظ أسبق إلى الأسماع من معناه
إلى القلوب .

الملاحظ : كان لفظه في وزن إشارته ، وطبيعته في معناه في مطابقة معناه .

ذكر الحسن بن وهب أحمد بن يوسف فقال : ما كنت أدرى ألفظه آتى
أم معناه ، أو معناه أبزل أم لفظه .

والمعاني وإن كانت كامنة في الصدور فإنها مصورة فيها ، ومتصلة بها ، وهي
كالآلئ المنظومة في أصدافها ، والنار الخبيئة في أحجارها ، فإن أظهرته من أكنانه
وأصدافه تبين حسنه ، وإن قدحت النار من مكانها وأحجارها انتفعت بها ، وإلا

(١) لعل أصل اللفظ : « فإذا هي آتية بالسودانية استعمالا عليه » وبذلك يتضح معناها .

(٢) في هذه الكلمة ربما بعدد محووظ ولا مرجح لذهب « مشبعا » . والأسناد مرمره يفتح كلمة
« مثالة » وكلمة « مشبعا » .

(٣) في الأصل : « الأسبق » وهو تحريف . انظر العدد من ١٩٢٢ ج ١ وفي نهاية الأثر :

« وقالوا : لا يستحق الكلام اسم البلاغة حتى يكون معناه الرافق أسبق من لفظه إلى سمع » من ج ٧

(٤) لعله : « مكانها » .

بقيت محجوبة مستورة ، وإنما يستتار الكامن منها ، ويستخرج المستتر من جواهرها ، بقدر حذف المستنيط ، وصواب حركات المستخرج ، وقصد إشارته ، ولطف مذاهبه . وكذلك ليس كل ناطق ولا كاتب يوضح عن المعنى ولا يصيب إشارته ، وكذا كان الكلام أقصَح ، والبيان أوضح ، كان أدل على حسن وجه المعنى . [وقد شبهوا المعنى^(١)] الخفى بالروح الخفى ، واللفظ الظاهر بالخطان الظاهر . وإذا لم ينهض بالمعنى الشريف لفظ شريف جزل لم تكن العبارة واضحة ، ولا النظام متسقاً .

(٢٨)

والدال على المعنى أربعة أصناف : لفظ ، وإشارة ، وعقد ، وخط .

وذكر أرسطاطاليس خامساً وهي التي تسمى النصيبية ، وهي الحالة الدالة التي تقوم مقام تلك الأصناف الأربعة الناطقة بغير لفظ والمشيرة إليه بغير يد ، وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض ، وفي كل صامت وناطق ، وهي داخلة في جملة هذه المعاني الأربعة وخارجة منها بالخلية .

ولكل واحدة من هذه الدلائل صورة مخالفة لصورة صاحبها ، وخلية غير مشكلة لخلية أختها ، غير أنها في الجملة كاشفة عن أعيان المعاني . وأوضح هذه الدلائل صنفان : وهما اللسان والقلم ، وكلاهما يترجمان ويدلان على القلب ، ويستعملان منه ، ويؤديان عنه ما لا تؤدي هذه الأصناف الباقية .

وأما اللسان^(٢) فهي الآلة التي يخرج الاقسان بها من حد الاستبهام الى حد الإنسانية ، ولذلك قال صاحب المنطق : حد الاقسان الخفى الناطق [وقال علي بن

(١) في الأصل : « وردياً » .

(٢) زدنا كلمة « وقد شبهوا المعنى » لينسب الكلام ، ونقلنا سقطت من النسخ .

(٣) أنت النصيب مراعاة لغير - وفي العقد « فهو »

عبيدة : [إنما بين عن الإنسان اللسان ، وعن الموقدة العبدان .] وقال هشام بن عبد الملك : [والله سبحانه رفع درجة اللسان فأنطقه من بين الجوارح بتوحيده ، وما جعل الله من عبده عن شيء مثل من لم يعبر عنه .

وقال آخر : الرجل محبوه تحت لسانه . وقالوا : المرء بأصغره قلبه ولسانه . وقال الشاعر :

وما المرء إلا الأصغران لسانه • ومعقوله والجسم خلق مصور

[فإن ترها راقصك يوما فرمما • أمر مذاق العود والعود أخضر]

الأعور التيمي :

لسان الفتى نصف ونصف فؤاده • فلم يبق إلا صورة اللحم والدم

وقال آخر :

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما • جعل اللسان على الفؤاد دليلا

الطائي :

وما كانت الحكمة قالت • لسان المرء من خدام الفؤاد

(٢٩)

ولتقط صورة معروفة ، وحلية موصوفة ، وفضيلة بارعة ليست لهذه الأوصاف ، لأنه ينوب عنها في الإيضاح عند المشهد ، ويفضلها في المغيب [ولأن الكتب تقرأ في الأماكن النائية ، والبلدان المنفردة ، وتدرس في كل عصر وزمان ، وبكل لسان ، واللسان وإن كان زلقا قصيفا لا يعدو سامعه ، ولا يجاوزه إلى غيره] .

(١) زيادة من القيد .

(٢) هذا البيت نسب إلى زهير .

(٣) زيادة من القيد .

وكفى بفضيلة القلم والخط قول الله عز وجل : ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عِلْمَ الْإِنسَانِ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ وأقسم به كما أقسم بغيره ، ثم أقسم بما يكتبه القلم إفصاحاً عن حاله ، وإعظاماً لشأنه ، وتبها لذكوه ، فقال : ﴿وَمَا يَسْطُرُونَ﴾^(١٢) .

ومن فضيلة الخط أنه لسان اليد ، ورسول الضمير ، ودليل الإرادة ، والناطق عن الخواطر ، وسفير العقول ، ووحى الفكر ، وسلاح المعرفة ، ومخادعة الأخلاء على التناهي ، وأنس الإخوان عند الفاقة ، ومستودع الأسرار ، وديوان الأمور ، وترجمان القلوب ، والمعبر عن النفوس ، والخبر عن الخواطر ، ومورث الأثر بمكارم الأفعال ، والناقل إليه مآثر الماضى ، والمخلد له حكمته وعلمه ، والمسامر للمعين بسر القلب ، والمخاطب عن الناصت ، والمجادل عن الساكت ، والمفصح عن الأيكم ، والمتكلم عن الأخرس ، الذى تشهد له آثاره بفضائله ، وأخباره بمناقبه .

(٣٠)

وقد وقعت البلاغة من العلم علو القدر وبأذخ العزكأى مسلم صاحب الدولة فزقت شملته ، وبقدت جمعه ، ونقضت برمه ، وأقسمت صلاحه ، وضعضعت بنيانه ، مع ذكائه ونفطانه ، ومكايده ودهائه ، وأصالة رأيه وشدّة شكيته ، وامتناعه على أبى جعفر ونفاره عنه ، كيف استفزه ابن المقفع وصالح بن عبد القدوس وجبل ابن يزيد واستقالوه بسحر الفاطهم ، وبلاغة أقلامهم ، حتى نزل من بأذخ عزه ،

(١) فى الأصل : « العلم » وهو محرف .

(٢) أكثر ما جاء فى هذا الموضوع متبس من كلام الجاحظ . راجع البيان والبيان ج ١

ص ٦٨ — ٧١

(٣) فى نهاية الأرب ج ٧ ص ١٢ « بهيمة القدير » وما هنا أدنى .

(٤) على الصواب : « وضعت » لتقابل « رفع » فإيجد .

(٥) لعله « القلم » .

(٦) لعل الصواب : « عل » .

وجاء مبادراً حتى وقع في الشُّرك المنصوب له ، فتفرق جمعه ، وانطفأ نوره ، وصار
خبراً مائزاً ، وربما دائراً .

ورفع القلم خاشع الطرف ، صغير الخطر ، لئيم الجنس ، درج من عش
النجار ، ونشأ بين المكال والميزان ، كيف أشات البلاغة بضبعيه ، ورفعت من
ناظره ، حتى شافهت به غنان السماء ، ورفعت بناءه فوق البناء ، حتى طيه الراكب ،
وقصده الطالب ، وخشعت له الرجال ، ولحظته العيون بالفوار ، وتمكن من
الصنائع ، ومُدت نحوه الأصابع ، فُشِرت منه اللفظة ، ورُجيت منه اللفظة ، كحمد
ابن عيد الملك بن الزيات ، وفيه يقول علي بن الجهم :

أحسن من عشرين يتأسدى * جمعك معانٍ في بيت^(١)

ما أحوج الملك إلى مطيرة * تفصل عنه وضر الزيت

فأجابه محمد بن عيد الملك :

وقيت في القول إلى خطلة * قدرك فيها قد تعديت

فترى الملك فلم يُنقِ * حتى غسلنا القار بالزيت

ومدحه حبيب بن أوس مدحه ويصف قلعه :

لك القلعة الأعلى الذي يشهاته * تصاب من الأُمُر الكُلي والمفاصل

وكان محمد من أطف الناس ذمناً ، وأرقهم طبعاً ، وأصدقهم حساً ، وأرشقهم

قلماً ، وأملحهم إشارة ، إذا قال أصاب ، وإذا كتب أبلغ ، وإذا شعر أحسن ، وإذا

اختصر أغنى عن الإطالة : أمره الواثق أن يتلطف بعبد الله بن طاهر ، ويعلمه

(١) في الأصل : « دأرا » وهو تحريف .

(٢) في الأصل : « معانم » وهو تحريف .

(٣) يظفر أنه سقطت كلمة « فقال » .

(٤) في الأصل : « يشاه » وهو تحريف . وفي الغفة « يشاه » .

انه صرفه عن أمر الخزائر والعواصم ، وقوض ذلك لابن عمه إسحاق بن إبراهيم ،
فكتب : أما بعد ، فإن أمير المؤمنين رأى أن يطلع ما في يمينك من أمر الخزائر
والعواصم فيجعلها في شمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته .

سهل بن بركة يهجو أبا نوح النصراني الكاتب فقال :

يا بني واتى ضاعت الأحلام ؟ * أم ضاعت الأذهان والأفهام ؟
من صدق عن دين النبي محمد * أله بأمر المسلمين قيام ؟
إلا تكن أسيافهم مشهورة * فينا فسلك سيوفهم أقلام ؟

(٣١)

قال عبد الرحمن بن كيسان : استعمال القلم أجدر بإحضار الذهن عند
تصحيح الكتاب من استعمال اللسان على تصحيح الكلام .

ولم يختلف في شرف القلم وإنما اختلف في كيفية البلاغة وماهيتها ، وقد مدحها
كل قوم بأوضح عبارتهم وأحسن بيانهم ، فقال صاحب اليونانيين : البلاغة تصحيح
الاقسام واختيار الكلام .

الرومي : البلاغة وضوح الدلالة واتماز الفرصة وحسن الإشارة .

الفارسي : هي معرفة الفصل من الوصل .

(١) نظير هذا ما قاله الرشيد أبي بن خالد : يا أيت إلى أردت أن أجعل الخاتم الذي في يد الفضل
إلى جعفر - وقد اختلفت مع تآكفنيه - فكتب إليه يحيى : قد أمر أمير المؤمنين أن عمل الله أمره أن
يجعل الخاتم من يمينك إلى شمالك (ص ٦٩ ج ٢ زهر الآداب) .

(٢) في الأسفل : « الكلام » وهو تحريف - ورواية الملاحظ : « استعمال القلم أجدر أن يحضر
الذهن على تصحيح الكتاب » الخ ج ١ ص ٧١

(٣) الذي في البيان والبيان أن هذا الجواب الهندى راجع إلى أن صفحة ٧٥ < ٧٦ ج ١ قال
ابن المدر اختصر هنا ما بسطه الملاحظ هناك . وانظر زهر الآداب ج ١ ص ١٠٥

المتدنى : هي البصر بالهجة والمعرفة بمواضع الفرصة ، ثم أن يدع الإفصاح بها^(١)
إلى الكفاية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقاً ، وربما كان الاطراق عنها^(٢) أبلغ
في الدرك وأحق بالظفر .

غيره : جماع البلاغة التماس حسن الموقع ، والمعرفة بساعات القول ، وقلة^(٣)
الخذق بما التمس من المعاني ومغض ، وبما شرد عليك من اللفظ وتعدّر . ثم قال :
وزين ذلك كله وبهاؤه وحلاوته أن تكون^(٤) الشائلي معتدلة ، والألفاظ موزونة ،
واللهجة نقية ، فإن جامع ذلك السن والسمت والجمال وطول الصمت فقد تم^(٥)
كل التماس .

وقيل لمتدنى : ما البلاغة ؟ فأخرج صحيفة مكتوبة عندهم فيها : أول البلاغة ائحال^(٦)
آلة البلاغة ، وذلك أن يكون البليغ رابط^(٧) الخاش ، ساكن الجوارح ، قليل المفظ ،
متخير اللفظ ، لا يكلم سيد الأمة بكلام الأمة ، ولا المثلوك بكلام السوق ، ويكون
في قواه فضل للتصرف في كل طبقة ، ولا يدقق المعاني كل التدقيق ، ولا ينفع
الألفاظ كل التفتيح ، ويصفى^(٨) كل التصفية ، ويهديها غاية التهذيب ، ولا يكون

(١) عبارة الجاحظ : « ومن البصر بالهجة والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكفاية
عنها الخ » .

(٢) عبارة الجاحظ : « الأضراب عنها مضطرب » .

(٣) يظهر أن كلمة « قلة » من زيادة التامع وفي البيان : « قلة الحرف » وهي أدخل في القموص .

(٤) يظهر أنه سقطت كلمة « مستأنه » وبها تم السجدة ، وهي مثبته في البيان .

(٥) زاد الجاحظ : « وكل كل النكال » .

(٦) في البيان وزهر الآداب : « السماع » وهي الخامسة لتمام هنا .

(٧) الخاش : راع القالب إذا اضطرب عنه القزع (قاموس) .

(٨) في الأصل : « بصفا كل التصفية » وهو تحريف . والصحيح عن الأيان وزهر الآداب .

كذلك حتى يصادف فيلسوفاً حكماً علياً ومن قد تعود حذف قصول الكلام وإسقاط
مشتركات الألفاظ .

أبو شروان ليزر جمهر : متى يكون العيب بليغاً ؟ فقال : إذا وصف بليغاً .

أرسطاطاليس : البلاغة حسن الاستعارة .

بشر بن خالد : البلاغة التقرب من المعنى البعيد ، والتباعد عن خسيس الكلام ،
والدلالة بالقليل على الكثير .

خالد بن صفوان : ليس البلاغة بخفة اللسان ، ولا بكثرة الهديان ، ولكنها
إصابة المعنى ، والقرع بالحجة .

عمر بن عبد العزيز : البليغ من إذا وجد كثيراً ملاء ، وإذا وجد قليلاً كفاء .

ابن عتبة : البلاغة دق المأخذ ، وقرع الحجج ، والاستغناء بالقليل عن الكثير .

بعضهم : إني لأكره للإنسان أن يكون مقدار لسانه فاضلاً عن مقدار عقله ،
كما أكره أن يكون مقدار عقله فاضلاً عن مقدار لسانه وعلمه .

(١) في البيان وزهر الآداب : « ولا يفعل ذلك » .

(٢) عبارة الجاحظ والمصري : « حتى يصادف حكماً أو فيلسوفاً علياً » .

(٣) حكماً في الأصل ، وفي زهر الآداب : « قد تعود » وهو الجمع .

(٤) في البيان وفي الأصل : « فعل » وقد أثرت عبارة زهر الآداب .

(٥) في الأصل : « أسقط مشترك القسط » . (راجع زهر الآداب ج ١ ص ٩٥ والبيان ج ١

ص ٧٩) . (٦) في النقد « جعفر » .

(٧) عبارة البيهقي : « والقصد لقبية » انظر المحاسن والمساوي ص ٢٧ وهي كذلك في النقد .

(٨) هو محمد بن علي بن عبد الله بن عباس (انظر البيان والبيان ج ١ ص ٧٤) .

(٩) كلمة « للإنسان » غير موجودة في رواية الجاحظ لأن محمد بن علي قال هذه العبارة في بلاغة

بعض أهله . (١٠) رواية الجاحظ « فله » .

(١١) رواية الجاحظ : « كما أكره أن يكون مقدار علمه فاضلاً على مقدار عقله » وهي أدق .

يكنفى من حظ البلاغة ألا يؤتى السامع من سدوء إلهام الناطق ، ولا يؤتى
الناطق من سدوء فهم السامع .

عمر بن عبد : ما البلاغة ؟ فقال : ما بلغك الجنة ، وعدل بك عن النار ،
وما بصرك بمواقع رشدك ، وعواقب غيئك . فقال السائل : ليس هذا أريد . فقال :
من لم يحسن أن يسكت لم يحسن أن يستمع ، ومن لم يحسن الاستماع لم يحسن
القول ؛ قال : ليس هذا أريد . [قال] قال النبي عليه الصلاة والسلام : " إنا معاشر
الأنبياء بكمون " وكانوا يكرهون أن يزيد منطق الرجل على عقله . فقال له السائل :
ليس هذا أريد . قال : كانوا يخافون من فتنة السكوت وسقطات الصحة ، فقال :
ليس هذا أريد . فقال : فكأنك إنما تريد تحوير اللفظ في حسن إلهام [قال : نعم ،
قال :] إنك [إن] أردت تقرير حجة الله في عقول المكلفين ، وتخفيف المؤونة عن
المستمعين ، وتزوين تلك المعاني في قلوب المريدين ، بالألفاظ المستحسنة في الآذان ،

(١) لم يذكر المؤلف صاحب هذه الحكمة ، وقد وردت في الأصل متصلة بما قبلها ، وذلك خطأ ،
وهي من كلام الإمام إبراهيم بن محمد (أنظر البيان والنبين ج ١ ص ٧٥ وزهر الآداب ج ١ ص ١٠٥)
(٢) في زهر الآداب ج ١ ص ٩٣ طبع المطبعة الرحمانية ونهاية الأرب للوزير (ج ٧ ص ٧ طبع
دار الكتب المصرية) : قبل لعمر بن عبد الله وهو أنسب .

(٣) هو خضر بن سالم كما في زهر الآداب ج ١ ص ٩٤

(٤) في الأصل « يسمع » وهو تحريف بدليل قوله : « ومن لم يحسن الاستماع » وهي كلمة في زهر
الآداب « يسمع » وكذلك في البيان والنبين .

(٥) الزيادة عن زهر الآداب ج ١ ص ٩٣ ونهاية الأرب ج ٧ ص ٧ لم يربط .

(٦) من اليك وهو لغة الكلام . وفي نهاية الأرب والبيان والنبين : « بكاء » وفردا بكى .

(٧) رواية الجاسط : « كانوا يخافون من فتنة القول ومن سقطات الكلام ، لا يخافون من فتنة
السكوت ومن سقطات الصحة » وهي أولى وأدق . (أنظر ص ٩٠ ج ١) .

(٨) رواية الجاسط « تحوير اللفظ » .

(٩) الزيادة عن نهاية الأرب وزهر الآداب .

المقبولة عند الأذهان، رغبة في سرعة استجابتهم، وفي الشواغل عن قلوبهم،
بالموعظة الحسنة على الكتاب والسنة، كنت قد أوتيت فصل الخطاب، واستوجبت
من الله سبحانه جزيل الثواب.

الخليل بن أحمد: كل ما أدى إلى قضاء الحاجة فهو بلاغة، فإن استطعت أن
يكون لفظك معنك طبعاً، وتلك الحال وفاء، وتحرك كلامك لأوله مشابهاً، وموارده
لمصادره موازناً، فافعل^(١). واحرص أن تكون لكلامك متبعا وإن طرّف، ولنظامك
مسترياً وإن لطّف، بمروءة آتاك لك، وتصرف إرادتك معك، فافعل إن شاء الله.



وهذه الرسالة عذراء لأنها بكر معان لم تفرعها بلاغة الناطقين، ولا لمستها أكف
المفوهين، ولا غاصت عليها فطن المتكلمين، ولا سبق إلى ألفاظها أذهان الناطقين،
فاجعلها مثالا بين عبيدك، ومصورة بين يديك، ومسامرة لك في ليلك ونهارك،
تهطل عليك شأيب مناقمها، وبظلك منها بركاتها، وتوردك مناهل بلاغاتها، وتدل
على مهجع رشدها، وتصدرك وقد تقع ظمؤك يتابع بحر إحسانها، إن شاء الله
عز وجل.

والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

(١) الخليل بن أحمد: «درميا كان الأصوب»: «ومورده لمصدره موازناً».

(٢) في العبد: «وقيل لخليل بن أحمد: ما البلاغة؟ فقال: ما قرب طرفاء، وبعد مشابها».

فهرس الموضوعات

| صفحة | مادة | صفحة | مادة |
|-----------|-------------------------------|-----------|--|
| ٢٦ | أشراج | ٤ | كيفية شرح الرسالة |
| ٢٧ | إهداء الكتب وغيرها | ٥ | مقدمة المؤلف |
| ٢٧ | إهداء القراطين | ٦ | عن الكتب وسمه على الحكمة |
| ٢٨ | قراءة الكتب المختومة | ٧ | لغاته وما يجب عليه تحصيله |
| ٢٨ | لضمين الأسرار | ٧ | لضمين الشعر والأشكال |
| ٢٩ | تحرير الألفاظ | ٨ | صفات الكتاب |
| ٣٠ | أوقات الكتابة | ٩ | أزياء الكتاب |
| ٣٠ | طبعة الكتاب | ١٠ | خلفات الكلام |
| ٣١ | آراء مختلفة في الكتابة | ١١ | أقدار الخططين |
| ٣٢ | المعاني والألفاظ | ١٢ | تحرير الألفاظ والتعابير |
| ٣٣ | بين أبي العلاء وابن مناذر | ١٣ | عبارة «جعلت هذا» |
| ٣٤ | عرض الكتابة على العلماء | ١٤ | عبارة «أبذل الله وأمتع بك» |
| ٣٥ | عود إلى أقدار الخططين | ١٥ | صدور كتب السلف |
| ٣٥ | آراء مختلفة في قيمة الكلام | ١٥ | بعض التعابير والكلمات المستعملة |
| ٣٦ | تدبر معاني الكلام قبل الإنشاء | ١٧ | تفتت الألفاظ والمعاني |
| ٣٧ | الرقعة والخرقة | ١٨ | هل يجوز محذوفاً القرآن في الحذف والايصال |
| ٣٨ | تنطع الكتاب | ١٩ | ما يجوز في الشعر دون الرسائل |
| ٣٩ | المعاني والألفاظ | ٢٢ | صدور الرسائل ونحواتها |
| ٤٠ | الدال على المعنى | ٢٢ | إصلاح اللفظة |
| ٤١ | بهاء الكتابة على الزمان | ٢٣ | الألفاظ والقراطين |
| ٤٢ | فضيلة الخط والقرن | ٢٤ | المستحسن |
| ٤٢ | فنون الكتابة | ٢٥ | الخط واللفظ والشكل |
| ٤٣ | محمد بن عبد الملك بن الزيات | ٢٥ | الصلابة على الشيء |
| ٤٤ | ما هيته الكتابة | ٢٦ | أزواج الكتب |
| ٤٨ | حذام الرسالة | | |

فهرس الأعلام

حرف الألف

إبراهيم بن محمد ٤٧
 إبراهيم الملقب ١٧
 أبو العيس ١٣
 أبو تمام ٤٢٤٤١
 أبو جعفر المنصور ٤٢
 أبو ذؤيب ٢٤٤٢٢
 أبو الناهية ٢٢٤٢٢
 أبو العلاء ٢٥٤١٣
 أبو مسلم الخراساني ٤٢
 أبو نوح النعماني ٤٤
 أحمد بن طولون ١٣
 أحمد بن يوسف ٣٩
 الأحرص ١٥
 أوسططاليس ٤٦٤٤٠
 اسحاق بن إبراهيم ٤٤
 الأصمعي ٢٢٤١٢
 الأعور القمي ٤١
 أنوشروان ٤٦
 (ابن ...) ٤٦
 ابن أبي كريمة ٣٧
 ابن الأعرابي ١٣
 ابن بسلام ٩
 ابن درستويه ٤٤٠٢٢

ابن عبد ربه (صاحب العقد) ٤٤٠٩
 ابن عبد كان ١٣
 ابن عبد الحكيم ١٦
 ابن المديني ٤٤٠١٨٤١٣
 ابن الخفيع ٤٢٠٢٢٤٢٢
 ابن ماذر ٢٢٤٢٢
 ابن علي ٢٥

حرف الباء

الباق ٩
 بدیع الزمان ٧
 بزرجهر ٤٦
 بشر بن خالد ٤٦
 البهيقي ٤٦

حرف التاء

التاجي ٩
 تاج ١٣

حرف الجيم

الجاسط ٤٤٠٢٢٩٠٢٨٠٣٥٠٣٤٠٩٤٥
 ٤٧٤٤٦٠٤٤
 جميل بن زياد ٤٢
 جعفر بن عبد الواحد ٢٨
 جعفر بن محمد ١٧
 الجوهري ٢٨

حرف الحاء

الحباب بن المنذر ٣٠

حبيب بن أوس ٣٨٤٣٤٣٢ (أنظر أبو تمام)

حسان بن ثابت ٣٧

الحسن بن مهبل ٣٧

الحسن بن هاني ٣٧٤٦١

الحسن بن وهب ٣٩

الحصري ٤٦

الحطاب ٤٩

حدود ١٣

حرف الخاء

خالد بن صعوان ٤٦٤٣٥

الخفاف بن ٣٨

الخليل بن أحمد ٤٨

حرف الدال

داود بن خلف ١٧

دوذي ٢٩

حرف الراء

الرشيد ٤٤٤٣٤٣٢

رقية بن العجاج ٣٨

حرف الزاي

الزبير ١٣

زهر ٣٢٤٧

حرف السين

سعد بن أبي وقاص ١٦٤١٢

سعيد بن حيد ٢٥٤١٨

سليمان بن وهب ١٩

سهيل بن بركة ٤٤

حرف الشين

الشعبي ٣٢

حرف الصاد

الصاحب بن عباد ٩

صايغ بن عبد القدوس ٤٢

صولي ٢٦٤٢٤٤١٤١٣٤١٢

حرف الطاء

طرماع ٣٨

عبد الحميد بن يحيى ١٣

عبد الرحمن بن حزم ٩

عبد الرحمن بن كيسان ٤٤

عبد الله بن طاهر ٤٣٠٢٣٤١٤

عبد الله بن عبد الملك ١٦

عبد الله بن قيس الرقيات ٣٢

الثعالي ٣٦٤٣١

الثعبي ٣٢

عثمان بن عفان ١٩

العربي ٢٦

عمريه ١٨٤١٣

العلاء بن الحضرمي ٦٥

علي بن أبي طالب ٢٤٤١٦٤١٢

علي بن الجهم ٤٣

علي بن قزي ٢٥

علي بن عبيدة ٤٠

عمر بن الخطاب ١٢

| | |
|-------------------------------------|----------------------|
| عمر بن عبد العزيز ٤٦ | عبد الحميد ٣٨ |
| عمر بن الخطاب ٣٣ | مرسوم ٣٩ |
| عمرو بن عبد ٤٧ | امرؤ القيس ٢٣ |
| عمرو بن عبدكرب ٢٤ | القاسم ٩ |
| عيسى بن طيبة ٣٧ | موسى بن القاسم ٩ |
| حرف الفاء | حرف النون |
| القمر وزابادى ٥ | الشافعية ١٩ |
| حرف القاف | النداس ١٣ |
| الفلقستى ١٢٤٩ | حرف الواو |
| حرف اللام | الوائى ٤٣ |
| ليد ٢٠ | حرف الهاء |
| حرف الميم | هشام بن عبد الملك ٤١ |
| المأمون ١٣ | حرف الياء |
| المسجد ١٣ | ياقوت ١٨٤١٧٢٩ |
| محمد بن عبد الملك بن الزيات ١٤ و ٢٢ | يحيى بن حاتم ٤٤ |
| محمد بن علي ٤٩ | يحيى بن حميد ١٣ |
| محمد بن عيسى ٢٣ | يحيى بن المبارك ١٣ |
| محمد بن مازن ٣٣ | يزيد بن عبد الله ٣٩ |
| محمد بن الوائى ١٢ | |

du Prophète. Je n'affirme pas qu'ils rimaient régulièrement, quel que fût le sujet de leurs discours, mais je suppose qu'ils devaient, suivant en cela l'exemple du Coran employer la rime quand ils traitaient un thème pathétique et cherchaient à toucher les coeurs.

Je n'ignore pas d'ailleurs, qu'il existait alors une école hostile à la prose rimée pour le motif que les Kahen l'avaient adoptée; mais c'est précisément parce que cette prévention existait qu'Al-gahiz a défendu avec chaleur cette manière d'écrire en rappelant que le Coran rime souvent et que le Prophète lui même rimait.

Il me faut noter ici qu'Al-Gahiz rimait également⁽¹⁾ mais sans s'y astreindre régulièrement; enfin, Je dois répéter qu'on peut trouver de la prose rimée chez beaucoup d'écrivains des trois premiers siècles. On admet même que la modé en était répandue chez les Bédouins : الأعراب

Aujourd'hui, on ne la rencontre plus que rarement; il y a là une réaction naturelle contre l'abus qu'on en a fait après le IV^e siècle, et les écrivains modernes considèrent le procédé comme pratiquement banal. On peut la trouver cependant chez les auteurs qui désirent exprimer quelque chose de sentimental ou donner à leur langue un tour artistique.

Ahmad Chawki احمد شوقي et Hafiz Ibrahim حافظ ابراهيم par exemple, riment souvent même en prose. Mais ce sont des poètes qui se plaisent à orner leurs phrases avec la sonorité de la rime.

Zaki Mubarak

Paris le 11 Septembre 1930

(1) Lettres, p. 5.

Abou Hilal El-Askari أبو حلال العسكري nous apprend que le Prophète rimait lui-même, mais qu'il évitait cependant de le faire lorsqu'il estimait que la rime risquait de fausser le sens de la phrase (1).

Il nous dit, autre part, que la prose rimée est d'autant plus estimée qu'elle reste agréable et naturelle. (2)

Ibn Khafaga ابن خفاجة dans son remarquable ouvrage intitulé : Serr El-Faḡalia سر الفاضلة dont le manuscrit se trouve à la Bibliothèque Égyptienne a étudié cette question de la manière la plus profonde. D'après lui, la plupart des écrivains avaient adopté la mode d'Al-Sagī ; seulement les uns rimaient régulièrement tandis que les autres ne le faisaient qu'occasionnellement et suivant les circonstances. (3)

Les rimes recommandables sont, à son avis, celles qui viennent compléter le sens, l'étayer et le renforcer.

Sont mauvaises, au contraire, celles que l'écrivain accumule automatiquement, sans autre souci que de donner de la sonorité à sa prose et sans s'inquiéter du sens.

Al-gahiz cite de temps en temps des exemples de prose rimée ; il semble considérer ce mode d'écriture comme un art précieux. et même il a défendu la rime dans la prose d'un point de vue théorique. D'après lui, aux premier et deuxième siècle les Kossas القصاص rimaient dans leurs Raḡas رقص (4) ; on connaît ces lettrés fameux qui s'en allaient dans les mosquées pour y donner des conférences publiques, et sur tous les sujets. Leur culture était tellement vaste, en effet, qu'ils pouvaient parler sur l'histoire générale, la littérature, la jurisprudence et aussi commenter le Coran aussi bien que les traditions

(1) Al-Sun'atun القصاصون p. 201.

(2) Ibid. p. 109.

(3) p. 184 à 190.

(4) Al-Bayān, p. 192-196, vol. 2 (ed. 1929).

J'insiste sur cette question, parce que là-dessus je ne saurais partager l'opinion de Mr. Marçais non plus que celle de Mr. Taha Hossein طه حسين. Ces deux éminents professeurs de la littérature arabe affirment que la mode de la prose rimée ne s'est vraiment développée qu'à partir du IV^e siècle de l'hégire.—Ma thèse est au contraire, que cette mode est excessivement ancienne. Le Coran, qu'on peut considérer littérairement comme le plus ancien et le plus authentique ouvrage de l'époque de la prophétie et qui touche encore à l'ère antéislamique, rime souvent. Les discours des Kahen كهان, des prêtres de cette période antéislamique étaient rimés, on en convient.

J'affirme que l'habitude s'en est continuée après le Coran; j'en suis sûr, d'abord parce que c'est naturel et aussi parce que nous en pouvons contrôler les traces.

Mr. Marçais est d'avis qu'elle a passé de mode au temps des Banou-Omayya, il me disait même un jour en Septembre 1920; qu'Ibn-El-Mokaffa' ابن المقفع, ignorait ce qu'est un Sag' صبح. Je crois au contraire, qu'il le savait très bien, puisqu'il a dit lui-même, qu'on peut trouver de l'éloquence dans une rime⁽¹⁾ d'ailleurs en fait, il rimait quelquefois⁽²⁾. Bachar Ibn Bord بشار بن برد, était également connu pour rimeur⁽³⁾.

Ibn El Athir ابن الأثير nous dit que le Coran a deux manières de balancer les périodes: la première est le sag' صبح; la seconde la *molzama* المزامنة⁽⁴⁾. Or nous savons très bien que le balancement des phrases par la *molzama* produit sur la construction générale de la période le même effet que la rime.

(1) Cf. Al-Bayan p. 96, vol. 1.

(2) Zahr El-Adab, p. 121, vol. 2.

(3) Adab El-Kutab, p. 68.

(4) Al-Mathal El-Saer المثل السائر p. 170.

Au début de la présente introduction nous avons constaté que les preuves formelles manquent pour attribuer de façon suivie la Lettre vierge à Ibn El Modabber. Quelques mots d'Al Soli, *قصرلي*, seulement établissent qu'il s'était occupé de l'art d'écrire.

Nous allons donc arriver à cette conclusion c'est que deux noms peuvent également être mis en avant comme ceux de l'auteur de ce morceau: Ibn El Modabber et Al Chalbani. Chacun d'eux s'appelant aussi Ibrahim Ibn Mohammed; et ainsi s'est produite la confusion, sans doute.

Quant à la lettre Vierge, en elle-même, son intérêt n'en est pas diminué par cette imprécision; il est dommage seulement qu'elle ressemble, trop par là à ce poème arabe dont soixante dix poètes, sans plus, prétendaient être l'auteur.

XIII

Il nous reste à jeter un coup d'œil sur ce qu'Al-Gahiz a écrit à ce sujet.

Nous remarquerons d'abord que le style d'Ibn El-Modabber ressemble beaucoup à celui d'Al-gahiz. On trouve même dans la Lettre Vierge certains paragraphes qui sont empruntés à l'œuvre d'Al-gahiz en particulier ceux dans lesquels il définit l'éloquence.⁽¹⁾ Ces emprunts s'expliquent d'eux-mêmes; d'abord parce que l'œuvre d'Al-gahiz était accessible à tous, et ensuite parce que ce dernier étant l'ami intime d'Ibn El-Modabber, celui-ci devait être tenté de le suivre ou plutôt de l'imiter.

L'œuvre d'Al-gahiz est longue et de pensée profonde; elle mérite une étude particulière. Nous allons donc nous borner ici à examiner son avis sur une question qu'ont omise aussi bien Ibn Durushayb, que Al-Sôli ou Ibn El-Modabber: celle de la rime en prose: *السجع*.

(1) Cf. Al-Itssan *البيان والبيان* p. 38-39 — vol. I.

les questions qui concernent les droits religieux et particulièrement les héritages. (1)

Voilà qui nous intéresse pour l'organisation administrative du monde arabe, à cette époque, l'auteur d'Al-'lkd n'a rien dit du costume qui distinguait ces spécialistes entre eux, mais nous savons par ailleurs, que leur tenue n'était pas uniforme; et notamment, d'après Al-Gabiz ^{الجاحظ} que les commis aux armées portaient des vêtements spéciaux et n'avaient droit pour montures qu'à des ânes, même quand les mulets étaient nombreux (2).

XII

Il nous reste à faire ressortir un fait important: Ibn 'Abd Rabbih s'est beaucoup servi de la Lettre Vierge, الرسالة الغراء, mais sans la citer expressément. L'auteur des extraits ne serait pas Ibrahim Ibn Moïhammad Ibn El Mudabbber, إبراهيم بن محمد بن المدابر, mais bien Ibrahim Ibn Moïhammad Al Chaïbani, إبراهيم بن محمد الشيباني.

Les extraits d'Ibn 'Abd Rabbih sont parfois un peu plus détaillés. Qui était donc cet Ibrahim Al Chaïbani?

J'ai cherché l'an dernier, à retrouver sa biographie, je n'y suis pas parvenu. Je suppose cependant qu'il a dû vivre dans la dernière partie du III^e siècle. Car il se réfère souvent à Al Gabiz, ^{الجاحظ} comme nous l'avons indiqué dans la notice qui accompagne le texte arabe.

(1) Ibid. vol. 3 page 14 et 15. voir également Sobh el Arch ^{صبح الأرش} p. 142 vol. 1. Certains auteurs donnent au mot Katch ce sens d'employé de bureau. D'autres au contraire, comme l'auteur de ^{في تاريخ أماليك} ^{ملوك الممالك} l'implément avec le sens qu'on donnait en France au mot : commis, au XVIII^e siècle. Colbert était un commis aux finances, comme Lamoignon à la guerre.

(2) Al Bayan vol. 3 page 60

(3) cf les 11-12-13

constamment chez les auteurs d'alors le conseil de vivre en bons termes avec ces personnages puissants.

Mais il y avait autre chose aussi. Les écrivains étaient alors réputés comme libres-penseurs et libertins. Les hérésies audacieuses, c'est dans leurs divans qu'elles prenaient naissance : les poèmes licencieux, les lettres légères et charmantes qui chantent l'amour et la beauté dans toutes leurs manifestations, c'est encore de là qu'ils sortaient; en un mot, toutes les attaques contre l'Islam, toutes les atteintes à sa tradition s'élaboraient dans ces bureaux.

Ibn 'Abd Rabbih nous a renseigné sur les conditions dans lesquelles fut changée l'habitude d'employer la langue grecque pour les calculs; il nous apprend que c'est Solafman Ibn Sa'd سلیمان بن سعد qui proposa à 'Abd El-Malek Ibn Marwan عبد الملك بن مروان l'abandon du grec pour adopter l'arabe⁽¹⁾, et que Kahlzam كحلزم réalisa une réforme analogue en substituant également l'arabe au persan.⁽²⁾

Les détails qu'il nous donne sur les diverses catégories de scribes sont bien curieux aussi. On trouvait des écrivains pour la correspondance, des commis chargés des impôts, d'autres affectés à l'armée; certains s'occupaient de la police et autres des tribunaux. Chacune de ces spécialités réclamait une culture particulière; les écrivains de lettres, par exemple, devaient connaître à fond les subtilités de la langue, afin de pouvoir correspondre aussi bien avec un souverain qu'avec les particuliers. Les commis aux impôts ne devaient pas ignorer le calcul, l'agriculture, non plus que la valeur d'estimation du bétail ou des bijoux; ceux de l'armée étaient des calculateurs; ceux de la police connaissaient la juridiction criminelle, tandis que ceux des tribunaux devaient être experts sur toutes

(1) Ibid vol 3 page 10

(2) Ibid . . . 11

Quand il cite Isma'il Ibn Ibrahim *إسماعيل بن إبراهيم* comme l'inventeur de l'écriture, il répète évidemment ce qu'on dit et ne se préoccupe guère d'apporter des preuves de même lorsqu'il affirme qu'au temps où naquit l'Islam, on ne trouvait pas plus d'une quinzaine de personnes qui sussent écrire. Il les énumère et donne leurs noms, mais comme tous appartenaient au milieu Koraïchite, l'argument est médiocre pour la société arabe, en général.

On ne saurait douter, en effet, que la majorité des Arabes fût, alors, illétrée; mais ne faut-il pas se souvenir également que les historiens musulmans ont toujours eu à cœur de dénigrer l'époque antéislamique afin de donner à l'Islam le caractère d'une transformation plus rayonnante et de montrer vraiment la croyance nouvelle comme la lumière, qui dissipe les ténèbres? Certes, l'Arabie doit sa gloire à l'Islam, mais nous ne devons pas oublier que l'ère antéislamique en avait été la préparation et qu'elle avait même présenté les caractères d'une véritable Renaissance.

Il semblerait à bien entendre Ibn 'Abd Rabbih que le métier de secrétaire eût été alors assez sujet à cautions et que ceux qui le faisaient manquaient parfois de moralité.

Il s'étonne par exemple qu'Al-Hasan El-Basri *الحسن البصري* ait occupé un pareil poste malgré sa naissance noble, ses scrupules et son désintéressement;⁽¹⁾ pour Al-Ch'abi *الشعي*, il fait la même remarque⁽²⁾.

L'observation devait être juste; comment en être surpris d'ailleurs? Le métier abondait en tentations périlleuses; c'étaient les commis, en effet, les écrivains, qui répartissaient l'impôt et par là tenaient le peuple à leur merci; car il n'existait pas alors chez les Arabes de règle générale et fixe pour les impositions; tout était laissé au bon plaisir des secrétaires d'Etat. Aussi rencontre-t-on

(1) Al-Hak El-Hamad *الحمد القوي* vol. 3, p. 9.

(2) Ibid. - 3, p. 10.

XI

Ahmad Ibn 'Abd Rabbih **أحمد بن عبد ربه** a fourni dans son ouvrage: **Al-Idk El-Farid** **الفرد القريد** des indications fort intéressantes sur l'art d'écrire et les différentes manières qu'on remarque chez les écrivains. Les renseignements qu'il nous donne représentent assez exactement les connaissances générales qu'on avait de son temps sur la matière, après avoir nommé celui qu'il considère comme l'inventeur de l'écriture et de l'alphabet, il énumère les diverses façons de commencer une lettre, de la cacheter, d'y inscrire la date et l'adresse. Il met en lumière la valeur et l'importance sociale du métier d'écrivain et cite un grand nombre de ceux parmi les meilleurs qui occupèrent le poste de secrétaires auprès des Califes **Abou-Bakr** **أبو بكر**, **Omar** **عمر**, **Othman** **عثمان** et **Ali** **علي**. Il y joint les noms de ceux qui ont rempli le même rôle chez d'autres personnages importants, et termine en parlant de ceux auxquels leur métier a conféré une véritable puissance.

On trouve, également, dans son ouvrage des aperçus curieux sur les qualités nécessaires à l'écrivain, remarquons ici en passant que le mot **kateb** **كتب** se traduirait plus exactement peut-être pour cette époque là, par scribe, ou encore, dans certains cas par: commis aux écritures. Ibn 'Abd Rabbih parle aussi de l'éloquence, mais s'intéresse de même à des détails matériels, au calame, ou à l'encre qu'il convient d'employer.

Il décrit les **tawkir** **الوقفات**, ces réponses brèves qui condensent beaucoup de sens en peu de mots; il donne enfin comme exemples afin d'illustrer les observations, de très nombreuses lettres fort intéressantes.

Les cinquante-cinq pages ainsi consacrées par Ibn 'Abd Rabbih à l'art d'écrire sont aujourd'hui pour nous des documents précieux; mais on aurait tort d'y chercher autre chose que l'œuvre d'un compilateur habile, et par exemple de l'originalité.

Il semble que les premiers Arabes écrivaient leurs lettres en un seul exemplaire : d'après Al-Sôli ce serait Ziyâd زِيَاد qui le premier aurait fait plusieurs copies de ses lettres⁽¹⁾.

On ne connaissait pas encore le métier d'expert الخبير en écritures. Solatman ibn-Wahb سُلَيْمَانُ بْنُ وَهْبٍ serait le premier à avoir fait quelque chose d'approchant. Ayant examiné une certaine lettre il suppose qu'elle avait été écrite par un faussaire ; il dicta donc à la personne qu'on soupçonnait le même texte ; le scribe jura ne l'avoir jamais écrit auparavant. Bien entendu, en prenant la dictée, il avait eu soin de modifier sa manière d'écrire. Mais Solâman Ibn - Wahb n'en reconnut pas moins qu'il était bien l'auteur de la première lettre examinée ; et comme on lui demandait comment il avait acquis cette certitude, il répondit que le faussaire, malgré sa volonté de masquer son écriture, n'avait pu s'empêcher de former certaines lettres comme il en avait l'habitude naturellement, et que cela avait suffi pour le trahir⁽²⁾.

Toutes les règles de l'art de bien écrire que nous venons d'analyser appartiennent, cela va sans dire, au seul style des lettres officielles, ou plutôt des lettres d'affaires. Quant aux missives privées, les Iktiwaniyat الإكْوَانيَات comme on les appelle, il n'existe pas de règles pour elles. On parle avec un ami en toute liberté⁽³⁾.

Mais c'est assez prolonger cette comparaison entre les œuvres d'Ibn - Durustuyah et d'Al-Sôli et la Lettre Vierge d'Ibn El-Mudabber. Pour nous résumer, nous dirons que le livre du premier traite la question à un point de vue grammatical et philologique ; le second l'examine sous l'angle des connaissances générales nécessaires à l'écrivain ; la Lettre d'Ibn-Mudabber, enfin, étudie les subtilités d'ordre artistique ou social qui ont trait à la correspondance officielle.

(1) Ibid, p. 44.

(2) Adab El-Kutub, p. 44.

(3) Ibid, p. 236.

l'a discutée aussi et noté que c'est *كاتب بن لوى* qui l'a forgée⁽¹⁾ ! Il s'agit, en tous cas, d'une mode très ancienne et qui s'est prolongée jusqu'à nos jours; elle commence cependant à tomber en désuétude.

Ibn El-Mudallib, nous l'avons vu, a rappelé quelques principes au sujet de la date à inscrire sur les lettres.

Ibn Durustuyah a été plus explicite sur la question⁽²⁾. Al-Sûlî l'a également traitée d'une manière détaillée⁽³⁾. D'après les renseignements fournis par eux, les Arabes n'indiquaient pas la date au moyen des chiffres, en ce temps-là, mais par une notation assez compliquée.

Al-Sûlî nous indique aussi que les *lakab* *الألقاب* n'ont été ajoutés aux noms que plus tard; on sait que les *lakab* sont des qualificatifs que les califes joignaient à leur titre. Dans les discours prononcés en public, on priait pour le calife régnant, mais sans ajouter son *lakab*; c'est pour Mohamad El-Amin *عبد الأمين* le premier qu'on a joint au nom le *lakab*. Après lui, la tradition s'est établie⁽⁴⁾.

On a souvent insisté avec raison sur l'importance alors du métier de rédacteur; le *kateb* *الكاظم*, dit-on, possédait tout en réalité, puisque c'était lui qui calculait et répartissait les impôts, le *Kharag* *الخراج*. Les rhéteurs n'ont pas à s'occuper de ce point là, préoccupés qu'ils sont de formuler les règles pour l'art d'écrire; cependant Al-Sûlî nous a laissé un excellent chapitre sur les avantages de ce métier, et il a évoqué avec des éloges le souvenir de ces Koraïchites *قرىش*, cités dans la Bible comme des écrivains et des calculateurs de premier ordre⁽⁵⁾. Dans un autre chapitre, il a résumé les connaissances qu'on avait alors sur le calcul, et cité à ce sujet quelques anecdotes⁽⁶⁾.

(1) *Adab El-Kutub*, p. 36.

(2) *Kutub El-Kutub*, pp. 77-81.

(3) *Adab El-Kutub*, pp. 178-185.

(4) *Adab El-Kutub*, p. 41.

(5) *Ibid*, p. 28.

(6) *Ibid*, p. 238.

Mais ceux qu'on appelle *šāṭḥ* chez les anciens Arabes, étaient, il faut le dire, des lettrés dont la culture était admirable; peut-être avaient-ils le droit et même le devoir d'enrichir leur langue? Qu'on laisse donc se développer, et librement évoluer un langage en notant simplement, si l'on y tient, quels sont les auteurs responsables de telle expression heureuse!

Les considérations d'Ibn El-Mudabbber et d'Al-Sôli sur ce sujet ne peuvent nous apparaître que comme les premières étapes de la critique philologique. Nous n'avons pas besoin d'ajouter qu'aujourd'hui ces arguties scholastiques sont loin, et que les écrivains arabes de nos jours jouissent, à l'égard de leur langue, d'une pleine et entière liberté.

X

Al-Sôli a traité la question du cachet: *ḥatṭ*

Les Arabes antéislamiques ne le connaissaient pas, nous dit-il. C'est le Prophète qui l'a introduit chez eux, du jour où il eût appris que les rois n'acceptent pas une lettre qui ne porte pas de cachet⁽¹⁾. Dans les premiers siècles de l'Islam, les ministres seuls pouvaient cacheter leurs lettres; leurs secrétaires n'avaient pas ce droit; lorsque l'un d'eux était amené par hasard à se servir du cachet, il devait par modestie signer sur le côté gauche de la lettre. De même au début il n'y avait pas de bureau particulier pour le sceau. C'est à Mo'awia *rahimé* qu'en est due la création⁽²⁾.

Avant lui, les rois conservaient leur cachet dans un coffre, et autorisaient au besoin leurs ministres à s'en servir.

Ibn Durastuyah a parlé de l'expression "*ḥatṭ*", mais pour en donner seulement des commentaires grammaticaux⁽³⁾. Al-Sôli

(1) *Adab El-Kuttāb*, p. 139.

(2) *Ibid.*, p. 141.

(3) *Kitāb El-Kuttāb*, pp. 76-77.

manéchéens "مَنْعِي"; Il nous donne des renseignements très précieux à ce sujet, car il va chercher des arguments jusque chez les premiers califes et le Prophète lui-même.

Mais, le raisonnement m'apparaît un peu faible; évidemment les hommes de ce temps-là ne pouvaient rien considérer que sous l'angle de la religion. Dès l'instant qu'une expression avait été inventée par le Prophète ou l'un de ses proches, elle devenait intangible, sacrée. C'était de quoi paralyser notre langue et la priver de toute faculté d'évoluer.

Que l'on conserve les termes rituels de prières purement religieuses, rien de plus naturel; mais j'admets moins facilement qu'on doive s'en tenir obligatoirement aux termes qui ont pu avoir échappé au Prophète dans des entretiens familiers; il m'apparaît fort improbable, en effet, que le Prophète ait songé à donner à chacune de ses conversations quotidiennes le caractère sacré d'un enseignement religieux. Il est d'ailleurs à remarquer que toutes les langues développées présentent des subtilités analogues dans l'emploi de telle ou telle expression; mais ces traditions s'appuient sur le génie lui-même de la langue, logiquement, et non pas sur des traditions religieuses interprétées par des esprits étroits.

En fait, les rhéteurs qui ont codifié ces subtilités n'avaient aucun pouvoir pour lutter, le cas échéant, contre l'usage établi. C'est ainsi qu'Ibn - El-Mudabbet par exemple a critiqué et raillé l'expression: "بَعَثَ فَذَكَرَ"; cela ne l'a pas empêché de l'utiliser lui-même à différentes reprises dans ses vers⁽¹⁾ Al-Sôli blâme l'emploi de "أَمَّا اللَّهُ بِمَا كُنَّا" mais en même temps il avoue que tout le monde l'utilise⁽²⁾.

Pourquoi ne l'eût-on pas employé agréablement après tout? Parce qu'on la devait à des athées?

(1) El-Aghani, p. 118-121, vol. 19.

(2) Adab El-Kutab, p. 172.

s'adresser même aux peuples étrangers; il importe donc d'employer une orthographe "intégrale" qui facilite la lecture et la prononciation; ce progrès hâterait grandement la diffusion de l'arabe dans le monde.

Les Arabes nomment "chakl شَكْل" ces signes-là, n'est-ce pas curieux? Le mot signifiait originairement la corde avec laquelle on attache un animal un peu sauvage pour éviter qu'il ne s'enfuit; on l'a pris dans un sens figuré pour indiquer le lien qui fixe chaque mot à sa signification authentique.

Les orientalistes auront avantage à utiliser le *chakl* régulièrement. Son emploi facilitera leur noble tâche.

IX

Ibn-Durustayh a parlé de l'expression "سلام عليك" Selon lui, aurait existé de son temps une interprétation subtile de cette formule; sous la forme: "سلام عليك" elle était une salutation pour les vivants; mais inversée sous la forme "عليك سلام" elle devenait un salut pour les morts. Les poètes seuls, prétend-il, confondent quelquefois les deux formes pour des besoins de mesure ou de rime, mais c'est le Prophète lui-même, à son dire, qui a engagé ses partisans à observer cette distinction⁽¹⁾.

Ibn El-Mudabbber a parlé, nous l'avons vu, des prières par lesquelles on commençait les lettres. C'est une question fort délicate. A l'origine de la langue les formules d'invocation étaient très voisines l'une de l'autre; cependant on faisait communément la différence entre "أشكرك الله بكَ" et "أشكرك الله طويلاً" Al-Sôli nous apprend que la première devait être rejetée comme ayant été forgée par les

(1) cf. Kirâh El-Kutâb, pp. 75 et 76, voir également

قراية القرآن، شرح رسالة القيرواني — ص ٢٤١ ج ١

(2) Adab El-Kutâb pp. 172-173.

mots qui changent de sens suivant la prononciation. Il importe enfin de dessiner complètement et correctement les mots que les gens du commun prononcent d'ordinaire mal.

Cette question de signes orthographiques me semble importante; elle est, comme on le sait une des critiques élevées contre les caractères arabes. On dit couramment que les mots écrits avec ces caractères peuvent se prononcer de plusieurs façons et présenter ainsi des sens différents; et c'est pour éviter cet inconvénient que les Turcs viennent d'adopter l'alphabet latin.

J'ignore quel succès a obtenu l'initiative des Turcs; mais ce que je sais bien, c'est que pour notre langue l'emploi de l'alphabet latin serait néfaste. Nous avons, en effet, deux sortes de voyelles; les grandes et les petites. Les grandes qui sont *Alif* آ, *Waw* وا, *Yâ* يا; les petites représentées par les signes qui fixent l'accent, c'est-à-dire *damma* ة, *kasra* ا, *fatha* َ. — Celles-ci, on ne pourrait les transcrire dans l'alphabet latin qu'avec la plus grande difficulté, et leur représentation compliquerait l'orthographe et la prononciation d'une manière considérable.

Pour éviter tant d'inconvénients, mieux vaut prendre l'habitude d'employer régulièrement les signes; ce n'est pas une très grande peine; et si on les inscrit, l'orthographe arabe reste plus facile et plus pratique que l'orthographe latine. Il est dommage que les anciens en aient délaissé l'obligation; ils avaient d'ailleurs une excuse, c'est qu'ils écrivaient pour des gens cultivés, et qu'un homme instruit n'éprouve jamais la moindre difficulté à lire des textes même entièrement dépourvus de signes d'accentuation; mais aujourd'hui la situation se présente très différente. La langue arabe veut

(1) *Adab El-Katib*, pp. 57-58.

(2) *Kitab El-Katib* p. 57.

mots qui la composent la brisent elle ressemble au vers dont la mesure n'est pas juste; les mots eux-mêmes prennent un aspect presque vulgaire et grossier⁽¹⁾ - Il est désagréable de voir un mot dont le dessin se trouve à cheval sur deux lignes⁽²⁾.

Ibn Durastuyah a donné des renseignements sur les usages qui avaient cours de son temps pour l'adresse des lettres.⁽³⁾ Il fallait inscrire les deux noms de l'expéditeur et du destinataire: si le second était un homme plus considérable, on devait l'écrire en premier. Al-Sôli indique que tout d'abord on avait pris l'habitude de mettre la Basmala en tête de l'adresse, mais qu'elle a été abandonnée⁽⁴⁾. Il se trouvait aussi des gens pour écrire leurs adresses en vers!

Ibn El Mudabbir a conseillé de ne pas entre les signes et les points destinés à fixer la prononciation, sauf dans les cas où il peut y avoir amphibologie; on doit alors employer l'orthographe régulière. Al-Sôli donne un conseil semblable. Il indique même qu'il faut toujours supprimer les points et les signes orthographiques quand on écrit à un chef; car ce sont des gens qu'on doit tenir comme omuscients; le chef, lui, pourra, au contraire employer signes et points quand il écrit pour ses attachés ou ses secrétaires, afin de préciser sa responsabilité. Il y a d'ailleurs d'autres personnes encore, ajoute Al-Sôli, qui préfèrent inscrire tous les signes orthographiques, de crainte d'erreurs graves dans la lecture.⁽⁵⁾

Ibn Durastuyah note que pour les philologues et les grammairiens c'est une obligation de mettre régulièrement les points et signes orthographiques, tandis que les écrivains de bureau peuvent les négliger, ... à condition toujours, cependant, de les écrire pour les

(1) Ibid. p. 54.

(2) Ibid. p. 56.

(3) Riâh El-Kutûb, p. 97.

(4) Adab El-Kutûb, p. 141.

(5) Ibid. p. 146.

les anciennes habitudes; il s'agit là évidemment d'un pur formalisme, mais il a une valeur profonde de psychologie. On doit en être assuré puisque l'usage n'en est fait que pour les œuvres sérieuses. Pour les recueils de poésie, on juge inutile de les placer sous l'invocation de Dieu, car d'après les conservateurs religieux, la poésie est un simple amusement.

Pour en revenir au discours de Ziyad, j'estime qu'il avait eu bien raison de ne pas le couronner par cette invocation qui est une marque de grâce et de tendresse, puisqu'il s'agissait là d'une diatribe virulente contre les habitants de Basra البصرة débauchés et fauteurs publics de désordre. Louer Dieu, prier pour le Prophète me semblent une attention délicate qu'il lui réserver pour les cas où l'on s'adresse à des esprits réfléchis et sensibles; l'habitude ne subsiste plus aujourd'hui, d'ailleurs, que dans les milieux religieux.

VIII

Al-Sôli a lui aussi parlé longuement de l'encre et de l'encrier⁽¹⁾ ainsi que des qualités du papyrus,⁽²⁾ de la fabrication du calame⁽³⁾; il a même traité ces questions moins superficiellement que ne l'a fait Ibn El-Madabber, estimant comme lui qu'il n'est pas indifférent pour bien écrire d'avoir de bons instruments. Al-Sôli a même consacré un long chapitre à énumérer les lettres, les poèmes qui ont été composés à la gloire des bons calames. Jadis, les grands écrivains appréciaient le don d'un calame de bonne qualité à l'égal du plus précieux cadeau; et je crois bien qu'il doit en être aujourd'hui de même pour les stylos. Les anciens jugeaient un écrivain d'après ses outils et même, estimaient-ils qu'une mauvaise écriture était une maladie sans remède chez un homme dont c'est le métier d'écrire⁽⁴⁾. Une ligne devait être tracée avec régularité, car si les

(1) Adab El-Kutub, pp. 95-101.

(2) Ibid, p. 103.

(3) Ibid, pp. 69-70.

(4) Ibid, p. 52.

Nous allons maintenant examiner les points de contact qu'il est permis de trouver entre les idées contenues dans la Lettre Vierge et celles qu'ont exprimées les autres auteurs qui ont traité la même question.

A propos de l'invocation au Prophète *صلى الله عليه وآله*, Al Sôli en a parlé lui aussi; mais tandis qu'Ibn El-Mudabber indique seulement qu'elle était une tradition supprimée par les Banou-Omayya, Al-Sôli dit que l'habitude en fut instaurée par Haroun El-Rachid *مروان الرشيد* qui la recommanda, voulant par là faire une bonne action⁽¹⁾. Le premier n'a rien dit de "Basmala" *الْبِسْمَة* c'est-à-dire de l'invocation à Dieu au début des lettres; Al Sôli nous donne, au contraire des renseignements précieux à ce sujet,⁽²⁾ ainsi que Ibn-Durastuyah⁽³⁾. On sait assez, par ailleurs, que dans les premiers siècles de l'Islam, les Arabes se sont montrés fort attachés à cette coutume de louer le nom de Dieu au début de leurs lettres, de leurs discours ou de leurs livres, et qu'on a blâmé par exemple Ziyad *زياد* lorsqu'il a prononcé, sans nommer Dieu ni le louer, le discours qui, à cause de cette omission, a été appelé: "Le Mutilé" *البتر*. On a même été jusqu'à forger un *hadith* qui condamne toute œuvre qui ne commencerait pas par cette invocation.

De nos jours, la première leçon qu'on donne à l'Université d'El-Azhar, après la rentrée, traite souvent de cette question: les auteurs azharistes commencent, en effet, toujours leurs livres par El-Basmala, même quand ils écrivent sur les mathématiques ou la géographie. C'est une tradition qui me semble dirigée surtout contre les mauvais croyants qui volontiers traitent avec indifférence

(1) Adab El-Kutâb *آداب الكتاب* p. 40.

(2) Adab El-Kutâb p. 31 et 32.

(3) Kitâb El-Kutâb *كتاب الكتاب* p. 75.

être une feuille de dimensions, pour ainsi dire: rituelles. Nous n'ignorons pas d'ailleurs que ces traditions sont encore observées aujourd'hui. Enfin, il recommande de sécher l'encre avec de la poussière, avant de plier la lettre, . . . et de ne pas oublier de dater la lettre.

Ibn El-Mudabbber conseille l'usage de l'invocation au Prophète; c'est la saine tradition, et comme on le sait, les écrivains n'y ont renoncé qu'à la suite des Banou-Omayya qui l'avaient supprimée les premiers.

On doit commencer une lettre en indiquant brièvement ce que l'on compte développer; les phrases de la fin doivent également préparer la conclusion.

Ibn El-Mudabbber a donné des renseignements amusants à l'usage de ceux qui désirent décacheter une lettre sans l'abîmer afin d'en prendre connaissance, et de pouvoir la cacheter à nouveau sans qu'on puisse soupçonner qu'elle a été ouverte. Voilà qui nous en apprend assez long, sur l'importance des correspondances officielles dès ce temps là. Je crois bien, d'ailleurs, que de nos jours encore, le Cabinet Noir, fonctionne souvent; par quels procédés? Il est inutile de le dire, mais qu'on soit bien persuadé que les diplomates et les guerriers connaissent leur affaire!

Ibn El-Mudabbber déclare enfin que le métier d'écrivain est un bon métier; il a tiré bien des hommes d'un milieu médiocre et grâce au Calame leur a parfois donné de la gloire.

VII

Je viens de faire une incursion rapide dans le texte de la Lettre-Vierge, mais il importe de lire attentivement l'original si l'on veut apprécier la valeur de ce petit chef-d'œuvre; c'est ce texte que je présente revu, corrigé et commenté.

Enfin, pour écrire de bonnes choses, il conviendra de choisir les moments où le cœur bat avec force, où l'âme est en pleine activité, car la nature ne livre le meilleur d'elle-même qu'aux heures ardentes où l'attire la violence du plaisir, ou la colère conquérante.

Un écrivain n'a pas le droit de prendre avec le langage régulier les libertés qu'a prises le Coran.

Parce qu'il s'est adressé à des Arabes de race pure, capables par conséquent de comprendre facilement n'importe quelles tournures de phrases, le Coran a parfois éliminé des mots, supprimé des propositions entières; tandis qu'un écrivain qui s'adresse à des hommes souvent étrangers à la langue arabe doit éviter soigneusement les mots à sens amphibologique, et ceux qui ne sont pas assez précis.

VI

Ibn El-Mudabber attache beaucoup d'importance aux qualités matérielles du calame lui-même. Il donne à ce sujet, des renseignements qui semblent presque inutiles aujourd'hui qu'on achète tout préparé le matériel d'écriture. Cependant, je louerais volontiers mon auteur pour ces détails, comme d'une psychologie très subtile, lui et ceux qui avec lui ont traité cette question. Car un calame obéissant et souple entraîne l'esprit à merveille, et nous-mêmes aujourd'hui nous aimons à choisir telle plume plutôt qu'une autre, afin de rendre notre tâche plus agréable. On a même blâmé le célèbre poète contemporain Ahmad Chawky أحمد شوقي pour avoir chanté les mérites de la plume Sadek ريشة صادق; on a crié à la réclame, et pourtant il est tout simple qu'un bon écrivain aime se servir d'une bonne plume.

La nature du papier retient aussi l'attention d'Ibn El-Mudabber; il le faut toujours d'excellente qualité, mais pour le format, chaque classe sociale a des traditions à cet égard. Une lettre officielle doit

C'est là, en effet, une vertu digne de louange, de façon générale, mais est-il décent de louer un roi pour la posséder, pour dire la vérité et ne pas mentir? Dire la vérité et tenir ses promesses, c'est de la loyauté, sans doute, mais aussi un devoir et pour tous les hommes. On ne doit louer les rois que pour de belles actions qu'ils soient les seuls à pouvoir accomplir. Ira-t-on, par exemple, faire honneur à un souverain de ne pas courtiser la femme de son voisin, de ne pas trahir les secrets qu'on lui confie, de garder sa parole et de tenir ses promesses? Ce sont là cependant des qualités qui méritent l'éloge, mais à l'égard d'un roi il serait ridicule, car ce sont aussi des devoirs que chacun doit remplir, même dans les classes les plus modestes de la société.

V

Ibn El-Mudabber conseille à celui qui voudrait choisir le métier d'écrivain de consulter d'abord sa nature.

Pour bien écrire, il faut des dispositions particulières et presque une vocation : on forcerait en vain la nature, si elle est mal préparée, car il faut qu'un écrivain tire beaucoup de son propre fonds; celui qui compte sur la connaissance des œuvres d'autrui, ne mérite pas vraiment ce nom.

Que celui-là se méfie cependant, qui se sent des dispositions pour bien écrire : car, en général, chacun de nous est porté à l'indulgence envers soi-même. Qu'il examine sévèrement ce qu'il compose; la nature humaine est faible et vaniteuse et tout créateur contemple son œuvre avec les yeux attendris d'un père pour son fils, ou d'un amant pour l'aimée. Si l'on écrit une lettre, il faut la soumettre au jugement des hommes compétents, et sans en nommer l'auteur, bien entendu, la laisser discuter, éplucher; et si elle trouve grâce, on pourra l'achever.

IV

L'écrivain doit fréquenter les savants et les lettrés, étudier avec soin les œuvres tant des anciens que des modernes, en connaître l'esprit, savoir par cœur poésies, nouvelles, histoire générale, afin d'enrichir sa poésie et de fournir au calame à la fois de la puissance et du charme. Il lui faut étudier les discours et les dialogues des Arabes, apprendre la logique, la littérature de la Perse, les traités des Persans et leurs proverbes, connaître aussi leurs manières d'agir et leurs ruses dans la guerre, et ne pas ignorer enfin, la grammaire, la philologie, et la versification.

Physiquement, un écrivain doit être de taille imposante, avoir des traits réguliers; sa voix doit résonner harmonieusement, et il faut que ses vêtements soient toujours propres et même élégants. Il importe que son âme soit douce, qu'il ait du bon sens et une expérience de la vie suffisante.

L'écrivain connaîtra parfaitement tous les milieux. Chaque classe sociale possède ses traditions, et rien ne serait plus ridicule de confondre des Califes... avec leurs ministres et de traiter de la même manière des secrétaires d'Etat et des généraux, par exemple.

Ibn-El-Mudabber ne cite pas les marchands ni les gens ordinaires comme correspondants dignes d'indication particulière, car, dit-il, ces gens là sont entièrement absorbés par les préoccupations de leur métier.

Mais pour les autres classes, comme toutes possèdent hiérarchie et tradition, il faut que l'écrivain en tienne soigneusement compte pour ne pas commettre d'erreur choquante. On a blâmé, par exemple, Al-Ahwas الأحمس pour avoir crû louer un roi par ces paroles: "Je vois que vous faites ce que vous dites, tandis que les autres ne tiennent pas leur parole et disent ce qu'ils ne font pas".

وأراك تفعل ما تقول وبعضهم ملقى الحديث يقول ما لا يفعل

en fait, un certain nombre de celles qu'il a traitées. Al-Gahiz les avait déjà étudiées, mais cependant, d'une manière générale le titre se justifie; c'est bien là une "Lettre Vierge".

III

Ibn El-Mudabber donne la plus grande importance à la forme. Il observe que les mots doivent être choisis selon la situation du correspondant, selon son goût et son degré de culture qui dépendent eux-mêmes des modes adoptées dans les différents milieux sociaux. Telles expressions, qui donnent pourtant un sens exact et précis, doivent être écartées, si elles ne sont pas celles qu'admet la mode particulière du milieu dans lequel vit l'interlocuteur. Tous les mots d'ailleurs doivent être choisis pour la clarté et la solidité avec lesquels ils expriment le sens—enfin, leur place dans la phrase importe également, afin qu'ils ne paraissent pas disparates à l'endroit qu'ils occupent. Car les mots sont semblables à la broderie qui orne une étoffe; chaque détail de la broderie doit être en harmonie avec l'ensemble du tissu; et les sages, dit-il, ont comparé le sens des écrits à la beauté des femmes, et les mots aux vêtements qui la parent.

Les mots eux-mêmes, d'ailleurs, un écrivain les trouve aisément; la difficulté réside dans leur arrangement: mêler les perles entre les mains de l'orfèvre, le difficile sera pour lui de composer le collier. La cornaline est jolie par elle-même, mais combien plus belle au cou d'une femme charmante! S'il veut produire quelque chose de beau, un auteur devra d'abord trouver un beau sujet. Il faut qu'un écrivain soit un homme juste et un sage; car la justice est l'âme des belles-lettres; et celui qui s'aviserait de traiter les choses légèrement n'obtiendrait aucun résultat; la sagesse demande des cœurs justes et équitables.

Les renseignements sur Ibn El-Mudabber se trouvent dispersés çà et là dans différents recueils.⁽¹⁾ Une part de sa célébrité lui vient de son amour pour 'Arib ^{عريب} la belle chanteuse. Il fut aussi l'intime ami d'Al-Qâhiz et tous deux passaient ensemble des veillées intéressantes. J'imagine que cette grande amitié fut une des causes qui ont incité Ibn El-Mudabber à composer son ouvrage sur l'art d'écrire, car je n'ai lu nulle part qu'il s'intéressât particulièrement à ce genre d'études. Cependant, j'ai trouvé chez Al-Sôli un mot qui semble bien indiquer chez Ibn El-Mudabber une certaine compétence pour la critique des expressions: la citation d'Al-Sôli est presque identique à celle qui se trouve dans la Lettre Vierge à propos des mots: "يملك ذلك". — Cela seul authentifierait la Lettre comme l'œuvre d'Ibn El-Mudabber. ⁽²⁾

La rhétorique, dans ce morceau, n'est pas celle dont on a usé après lui. L'allure y est plus franche, plus directe que chez Al-Qâhiz même: le souffle est plus chaud. L'auteur s'adresse aux écrivains des bureaux administratifs, à ceux par conséquent qui servent de secrétaires aux rois et aux Califes. Certains passages sont tout à fait originaux, et mettent bien en valeur les qualités et l'importance de la prose, ainsi que l'influence et l'autorité que le talent donne à l'écrivain.

La lettre dans son ensemble est une œuvre remarquable. L'auteur l'avait nommée "la Vierge" parce qu'il pensait y avoir examiné des questions que personne avant lui n'avait abordées;

(1) Sa biographie se trouve dans *Al-Aghani* الأغانى vol. 19, cf. aussi les pages 188-184-59 du vol. 18. — 35 et 36 du vol. 20. — 175: vol. 6 — 90 et 92, vol. 15 11-20; vol. 13; enfin 26-29-108-109-113 vol. 9 - On peut consulter aussi *Yakout*: p. 155-169 vol. 2-61-65 vol. 6-93-94 vol. 2 - Également *Masalek El-Ahsar* المسالك p. 329 vol. 1. *Nishwâr* p. 131 vol. 1; enfin *Zahr Fa-Ardh* p. 113-140, vol. 1.

(2) *Adab El-Kutub* أدب الكتب vol. 154.

"Je venais, poussé par le désir de vous voir; mais dans les gens de votre suite, je n'ai trouvé que visages de bois".

"On dirait que je suis un créancier importun qu'on chasse ou un espion". (1)

Une autre fois, c'est Abou El-'Aynâ أبو العينا qui vient chez 'Obaïd Allah Ibn Solâïman عبيد الله بن سليمان pour lui exposer une plainte. "Comment? répond 'Obaïd Allah, mais nous avons écrit à Ibn El-Mudabber afin qu'il arrange votre affaire".

"C'est vrai, Seigneur, vous avez écrit; mais à un homme qui est prisonnier de la dure pauvreté, jusqu'à l'humilité de la captivité. C'est pourquoi, il m'a déçu".

"Mais n'était-ce pas vous qui l'aviez choisi pour patron? répartit 'Obaïd Allah".

"Que peut-on me reprocher! dit Abou El-'Aynâ. Mais je ne suis pas le premier qui se soit trompé. Moïse avait à choisir soixante-dix sots. (2) Le Prophète prit Ibn Abi Sarh ابن أبي سرح pour son secrétaire; il apostasia par la suite. 'Ali Ibn Abi-Taleb علي بن أبي طالب a choisi Abou-Mousa أبو موسى comme arbitre; et il arbitra contre lui". (3)

La captivité dont parle ici Abou El-'Aynâ à propos d'Ibn El-Mudabber était réelle: Les Zangs l'avaient fait prisonnier à Basra et enfermé. Il s'échappa d'ailleurs et s'enfuit après avoir percé une muraille; son évasion a fourni à Al-Bulïori le sujet d'un beau poème. (4)

(1) Yakout ياقوت - p. 292, vol. 1.

(2) Allusion à un verset du Coran (مودة الأعراف 154) Moïse eut à choisir 70 hommes: ils étaient tous sots.

(3) Zahr El-Adab زهر الآداب - p. 236, vol. 1. - Ibn Abi Sarh fut d'abord le secrétaire du Prophète: il l'abandonna ensuite, et habilla l'Islam pour se rejoindre à ses parents.

(4) Zahr El-Adab - p. 257, vol. 1.

puis, j'ai repris ma lecture mot à mot avec Mr. le Professeur Marçais qui m'a aidé à dissiper quelques obscurités. Je ne crois pas trop me flatter en pensant que ces efforts me permettent de présenter un texte amélioré à l'École des Langues Orientales de Paris. Il m'eût agréé fort d'écrire la présente introduction dans ma langue maternelle, mais Mr. Marçais m'en a dissuadé, estimant avec raison sans doute qu'il fallait songer aux lecteurs qui ne suivent pas aisément un texte arabe dans l'original, et l'écrire en français.

J'expose ici les idées principales de la Lettre et je les compare à celles qu'à la même époque Al-Gahiz الجاحظ, Al-Soli السولي, Ibn-Durustuyah ابن درستويه et Ibn 'Abd Rabbih ابن عبد ربه ont exprimées sur le même sujet. ⁽¹⁾

L'intérêt de cette étude est de préciser la nature du mouvement littéraire et des théories touchant l'art d'écrire, au III^e Siècle de l'Hégire; c'est en quelque sorte un prologue pour mon ouvrage sur la prose arabe au IV^e Siècle.

II

Ibrahim Ibn El-Mudabber ابراهيم بن المدابر, l'auteur de la Lettre Vierge الرسالة العذراء, à la fois écrivain et poète est mort à Bagdad en 279. Il appartient par conséquent au III^e siècle de l'Hégire. Après avoir occupé différents postes éminents, il devint le ministre d'Al-Mo'tamed المعتد. En cette qualité, on le voit fort entouré par les autres poètes et littérateurs qui en attendaient quelque faveur, et l'on trouve à ce sujet pas mal d'anecdotes savoureuses dans les recueils littéraires. Un jour par exemple, Al-'Atawi العتوي le poète, s'étant rendu chez lui pour le voir, se heurta au refus du portier; il se retira mais adressa aussitôt à Ibn El-Mudabber les deux vers suivants :

(1) Il semblerait que le nom d'Ibn Kutayba ابن كتيبة doit être cité ici au premier rang, puisque son ouvrage Adab El-Katib أدب الكاتب est consacré à l'art d'écrire. En réalité, il s'agit plutôt là de philologie et non de rhétorique. Nous avons pourtant rapproché son texte de nos observations, dans l'édition même de la Lettre Vierge, toutes les fois qu'il a été possible de le trouver utile à notre sujet.

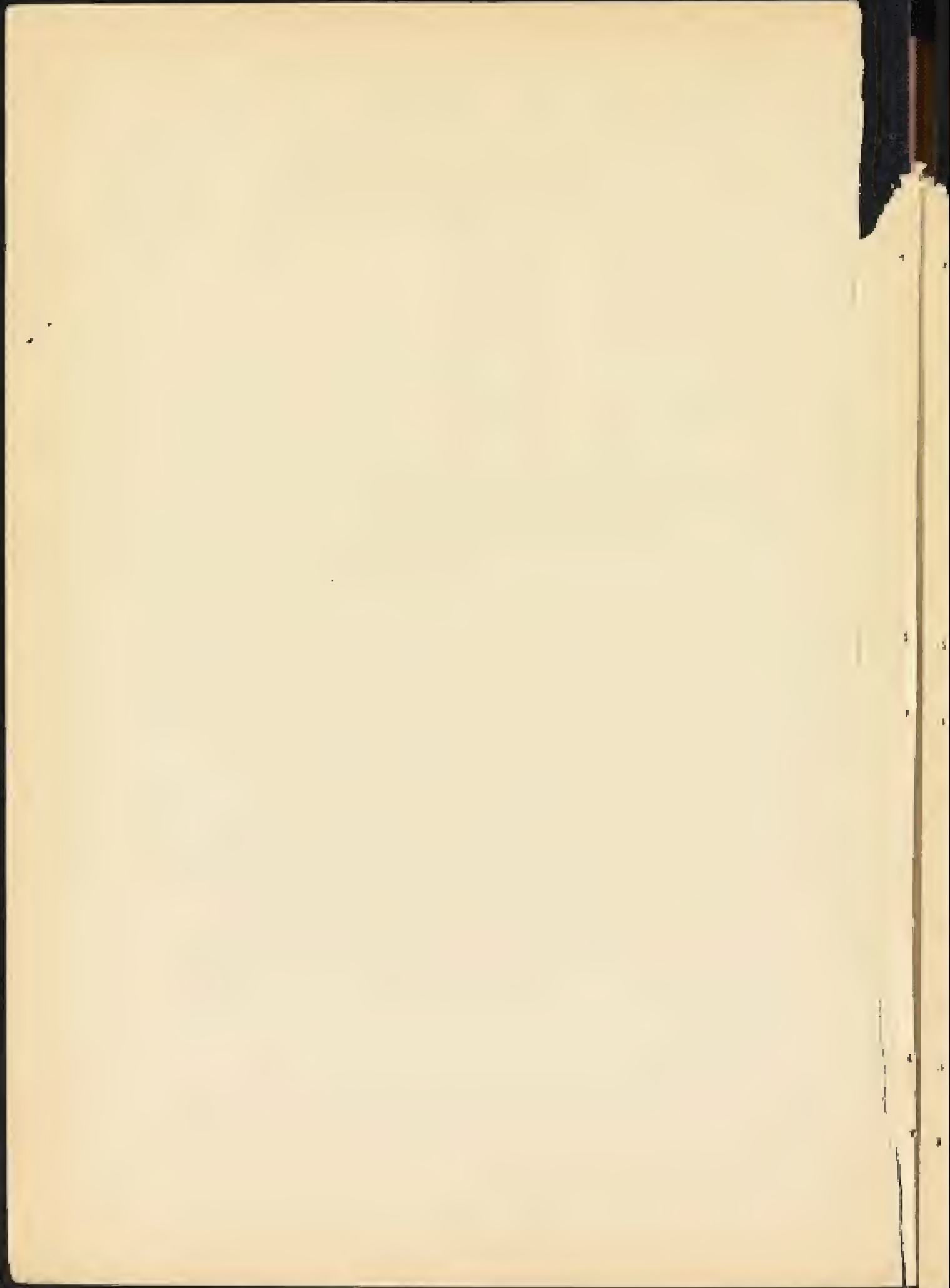
Considération sur l'Art d'écrire chez les Arabes au III^e siècle de l'Hégire

La lettre que je présente aujourd'hui à l'École des Langues Orientales de Paris a déjà été publiée en 1912 - et pour la première fois, au Caire, dans un intéressant recueil qui paraissait alors sous les auspices et la direction de S. E. Mohammad Kordi 'Ali محمد كودي علي, ministre de l'Instruction Publique en Syrie. Ce premier éditeur disait l'avoir trouvée dans un ancien manuscrit faisant partie de la bibliothèque du Cheikh Taher El-Gazaïri طاهر الجزائري, et la publier sur le texte de ce seul document, faute d'en avoir trouvé d'autre.

Cette lettre est d'une haute importance. Personne, cependant, à ma connaissance ne s'y est intéressé après sa publication; pas même l'érudit qui la publiait, puisqu'il n'a joint à son texte aucun commentaire. Quant aux historiens de la littérature arabe, en Egypte, ils ont laissé passer l'événement sans le relever; nul d'entre eux n'a songé à utiliser le document pour une étude sur l'art d'écrire.

J'ai demandé moi-même à M. Kordi 'Ali, dans une lettre, si depuis la publication de ce texte il en avait rencontré un autre manuscrit ou trouvé quelque renseignement; s'il avait enfin relevé lui-même quelques fautes de copiste ou des altérations. Dans sa réponse il m'indiquait n'avoir découvert aucun autre manuscrit de la Lettre - sans doute parce que les gens du pays ont le sens du mercantilisme plus encore que les frères de Joseph أيع من اخوة يوسف; qu'il existait sans doute des fautes et des altérations dans le texte qu'il avait publié, comme il en va toujours des anciens manuscrits, quand ils n'ont pas eu la chance d'être écrits par des mains savantes ou encore corrigés par des lettrés, égaux en savoir à l'auteur lui-même.

J'ai donc poursuivi mon étude personnelle, attentivement, ce qui m'a permis de relever un certain nombre de leçons fautives;



A

Monsieur le docteur Snouck Hurgronje

Hommage de respectueuse gratitude.

Zaki Mubarak

18916G

L'Art d'écrire chez les Arabes au III^e siècle de l'Hégire

Etude critique
sur
LA LETTRE VIERGE
D'IBN EL-MUDABBER

Par
ZAKI MUBARAK

Docteur en Lettres de l'Université de Paris

Docteur en Lettres de l'Université Égyptienne

Diplômé de l'Université d'El Azhar

Diplômé d'Etudes Supérieures de l'École des Langues Orientales de Paris

Directeur de l'enseignement de l'Arabe à l'Université Américaine du Caire

Professeur d'Arabe au Lycée Français du Caire

DEUXIÈME ÉDITION

LE CAIRE,
IMP. DE LA BIBLIOTHÈQUE ÉGYPTIENNE

1931

DU MÊME AUTEUR

LA PROSE ARABE

au IV^e siècle de l'Hégire (X^e siècle)

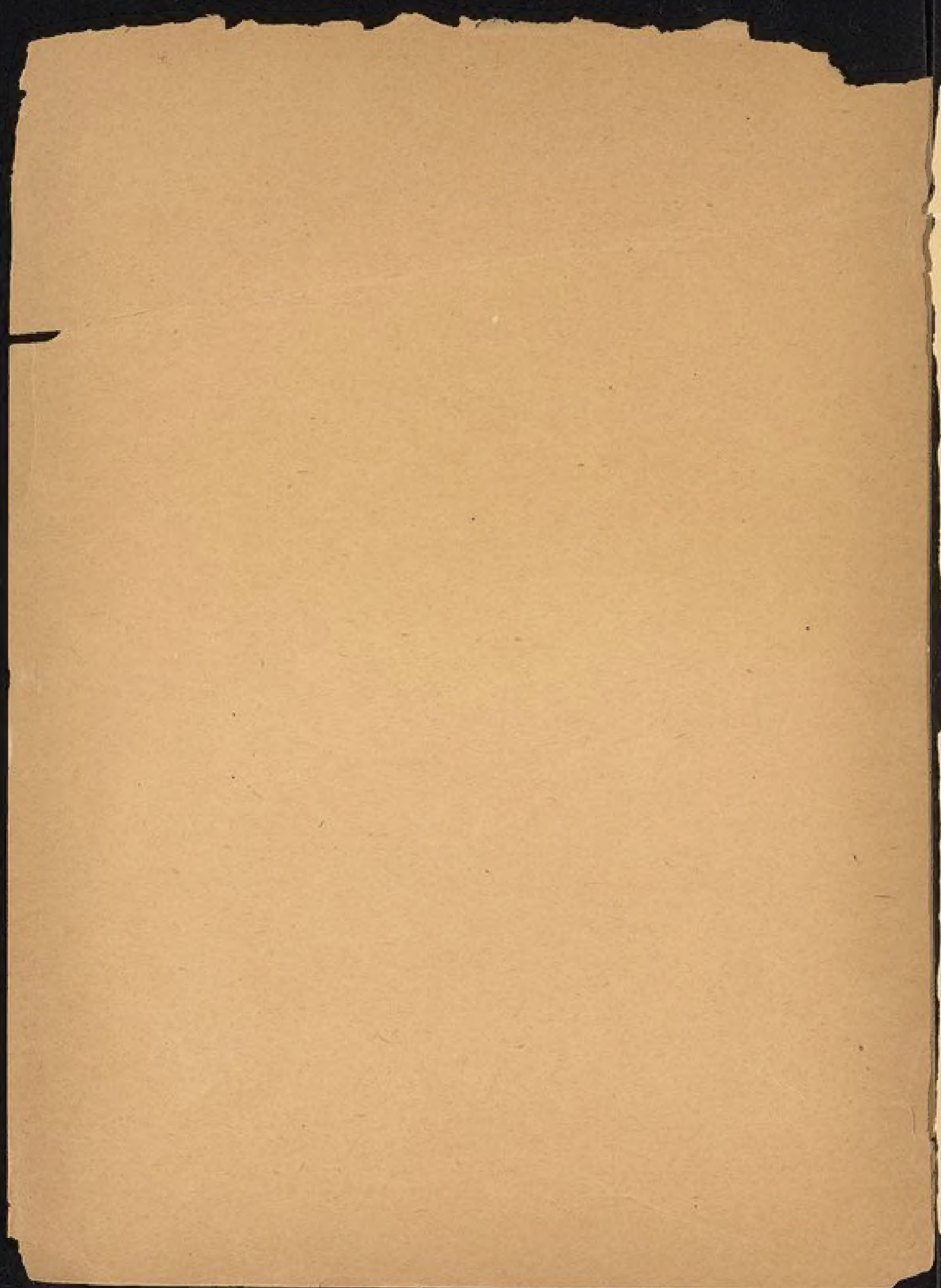
Arthur Jeffery
1932

Etude critique

sur

LA LETTRE VIERGE

D'IBN EL - MUDABBER



COLUMBIA UNIVERSITY LIBRARIES



0114434628

DUE DATE

OFFIC. JUL 8 1993

201-6503

Printed
in USA

JAN 4 1977

L'Art d'écrire chez les Arabes au III^e siècle de l'Hégire

Etude critique
sur
LA LETTRE VIERGE
D'IBN EL - MUDABBER
(† 279)

Par
ZAKI MUBARAK
Docteur ès Lettres de l'Université de Paris
Docteur ès Lettres de l'Université Egyptienne
Diplômé de l'Université d'El Azhar
Diplômé d'Etudes Supérieures de l'Ecole des Langues Orientales de Paris
Directeur de l'enseignement de l'arabe à l'Université Américaine du Caire
Professeur d'arabe au Lycée Français du Caire

DEUXIÈME ÉDITION

LE CAIRE,
IMP. DE LA BIBLIOTHÈQUE EGYPTIENNE
1931

